سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مدنية وآيتها مئتا آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تُسمَّى هي والبقرة بالزهراوين، وتسمى الأمان والكنز، وقد ورد في فضلهما أحاديث كثيرة. سبب نزول هذه السورة الكريمة، وفد نصارى نجران، فقد روى محمد بن إسحق قال: «قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً فخاصموا في عيسى عليه السلام، فقال لهم ﷺ: ألستم تعلمون أن الله تعالى حيٌّ لا يموت، وعيسى يموت؟ وأن ربنا قيِّم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك؟ وأنه تعالى صوَّر عيسى في الرحم، وحملته أمّه ووضعته وأرضعته، وكان يأكل ويُحْدِث، وربنا منزَّهٌ عن ذلك كله؟ قالوا: بلى، ثم قالوا يا محمد: ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا»[1].

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

(١) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٦ وهي من رواية محمد بن إسحق.

﴿ الٓمٓ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ أي الباقي الدائم، القائم على تدبير شؤون العباد ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ ﴾ القرآن منجماً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي نزَّله محقاً في تنزيله على ما هو عليه، أو ملتبساً بالعدل في أحكامه، وبالصدق في أخباره ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي لما قبله من الكتب السالفة، وفائدة التقييد بها، حثُّ أهل الكتاب على الإيمان به ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ تأكيد لما قبله، وتمهيد لما بعده، إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعةً ووجاهة، ويزداد في القلوب قبولاً ومهابة، ويتفاحش حال من كفر به شناعة.

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل القرآن، والتصريح به للمبالغة في البيان ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي أنزلهما هداية للناس، والمراد بالناس الأمم الماضية، من حين نزولهما إلى زمان نسخهما ﴿ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ يريد به جنس الكتب الإلٓهية، فإنها فارقة بين الحق والباطل، ذكر ذلك ليعمَّ ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل، أو المعجزات ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها من المعجزات ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب كفرهم ﴿ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ وهو وعيد، جيء به إثر تقرير التوحيد، زجراً عن الكفر والعصيان ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب ﴿ ذُو انتِقَامٍ ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنقمة عقوبة المجرم، ولم يقل المنتقم، لأنه أبلغ منه، إذ لا يقال صاحب سيف إلا لمن يكثر منه القتل، لا لمن معه سيف.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ﴾ أي شيء كائن في العالم، كلياً كان أو جزئياً والمراد من الأرض والسماء العالم بأسره والتعبير بعدم الخفاء أبلغ من التعبير بالعلم، وهو كالدليل على كونه تعالى حياً قديراً، مالكاً لكل الأشياء.

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ تصويركم من الصور المختلفة المتفاوتة في الخلقة، أبيض أو أسود، حسناً أو قبيحاً، كاملاً أو ناقصاً، والتصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، أي يصوركم وأنتم في الأرحام مُضَغ، وفيه من الدلالة على بطلان زعم ربوبية عيسى،

وهو في جملة أبناء الأرحام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيره ما يعلمه، ولا يقدر على مثل ما يفعله ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ المتناهي في القدرة والحكمة، ولذلك يخلقكم على نمط بديع، كرر الجملة للدلالة على نفي الإِلٰهية عن غيره تعالى، توكيداً لما قبلها، ومبالغة في الرد على من ادعى إلٰهية عيسى عليه السلام، ثم أتى بالحكمة لأن خلقهم على ما ذكر من النمط البديع، أثرٌ من آثار تلك القدرة الباهرة.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ شروع في إبطال شُبه الضالين، ولام الكتاب للعهد، أي القرآن الكريم ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أحكمت عبارتها، لظهورها ووضوحها ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أصلُه، تُردُّ إليها غيرها في الأحكام، والعرب تسمي كل جامع يكون مرجعاً أماً ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ أُخر جمع «أخرى» مؤنث آخر، ومتشابهات صفة لمحذوف أي محتملات لمعان متشابهات، لا يمتاز بعضها من بعض، ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق، وحكمة ورود المتشابهات، إظهار فضل العلماء فيها، والتشويق على أن يجتهدوا في تدبرها، واختبار للإيمان بالغيب ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ عدول عن الحق، قال الراغب: الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين؛ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ فيتعلقون بظاهره، معرضين عن المحكمات، لا تحرِّياً للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى، بل

﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم، ويضلوهم بالتشكيك والتلبيس، ومتى أوقعوا تلك الفتنة، صار بعضهم مخالفاً للبعض، وذلك يفضي إلى التقاتل، والهرج، والمرج، فذلك هو الفتنة ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ هو أن يأخذ ظاهر المتشابه، ويحمّل لفظه أحد المحتملات التي توافق أغراضه الفاسدة، ويقرر البدعة والباطل، ويؤوّل حسبما يشتهي[(١)] ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ والحال لا يهتدي إلى تأويله إلا الله، والوقف لازم عند الجمهور على قوله: ﴿إلاَّ الله﴾ وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كوقت قيام الساعة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه، ولم يتزلزلوا في مزالّ الأقدام، ومداحض الأفهام، والمراد بالعلم «العلم الشرعي» المقتبس من مشكاة النبوة، فإن أهله هم الممدوحون بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بالمتشابه، وهو ثناء عليهم بالإيمان واعتقاد الحقيقة بلا تكييف، وهذا قول أكثر المفسرين ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ من عند الله تعالى، لا مناقضة ولا مخالفة بينهما، وفي التعبير بالرب، إشارة إلى سر إنزال المتشابهات، والحكمة فيه لما أنه متضمن معنى التربية، والإيصال إلى معارج الكمال، وقد قالوا: إنما أنزل المتشابه لذلك، وليظهر فضل العلماء، ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبره، وتحصيل العلوم التي نيط بها استنباط ما أريد به من الأحكام الفقهية، فينالوا بذلك المدارج العالية، وذلك من التربية والإرشاد ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن، وحسن النظر، للاهتداء إلى تأويله، لما أنهم قد تجردوا عن الأهواء الزائغة.

---

(١) التأويلُ: كشف المراد عن المشكل من الآية، وأكثر استعمال التأويل في المعاني، فلو قلنا في قوله تعالى: ﴿يخرج الحيَّ من الميّت﴾ إنه أُريد به إخراج الفَرْخ من البيضة كان تفسيراً، وإذا قلنا: يراد به إخراج المؤمن من الكافر، أو بالعكس كان تأويلاً؛ فالتأويل بيان المراد من اللفظ غير الظاهر منه، مشتقٌّ من آل، يؤل، أولاً ومآلاً: إذا رجع، وأما التفسير فهو توضيح المعنى المراد، فتنبَّهْ واللهُ يرعاك.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ أي قولوا: ربنا لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق، إلى اتباع المتشابه بتأويل فاسد لا يرضيك، والزيغ إنما هو ثمرة لما يحدث في القلب، بسبب اختيار الإنسان ما يوافق له، فإن كانت تلك الداعية الكفر فهي: الخذلانُ، والإزاغة، والختم، والطبع، وغيرها، وإن كانت تلك الداعية الإيمان فهي: التوفيقُ، والرشادُ، والهداية، والسَّداد، والتثبيت، والعصمة وغيرها، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو «يا مقلّب القلوب ثبّتْ قلبي على دينك» قلت يا رسول الله: ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟ فقال: «ليس من قلب إلاّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمٰن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»[1] ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ إلى الحقِ والإيمان ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك ﴿ رَحْمَةً ﴾ واسعة تزلفنا إليك، للثبات على الحق، وسؤال ذلك، إشارة إلى أنه منه تعالى فضلٌ محض، من غير شائبة وجوب عليه تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ الهبةُ: العطيةُ الخالية عن الأعواض والأغراض، أي أنت المتفضل بالعطاء والإحسان.

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾ لحساب يوم، أو لجزائه، فحذف المضاف تهديداً لما يقع فيه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا ينبغي أن يُرتاب في وقوعه، ومقصودُهم من هذا كمال افتقارهم إلى الرحمة، والتأكيد لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة بالآخرة، فإنها المقصد والمآل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ فإن الإلٰهية تنافيه، وإظهار الاسم الجليل، لابراز كمال التعظيم، والميعاد مصدر ميمي بمعنى الوعد، أي لا تخلف وعدك.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم/ ٣٥١٧/ وقال: هذا حديث حسن.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لمَّا بيَّن الله تعالى دين التوحيد والحق، شرع في بيان من كفر به، والموصول عام في الكفرة ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ ﴾ أي لن تنفع أو تدفع عنهم ﴿ أَمْوَٰلُهُمْ ﴾ التي أعدُّوها لدفع المضار، وجلب المصالح ﴿ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم ﴾ الذين يتناصرون في الأمور المهمة ويعولون عليهم في الملمات ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء، والمعنى: لن تغني عنهم أموالهم وأولادهم من عذاب الله تعالى شيئاً من الإغناء ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ أي حطبها الذي تُسعَّر به نار جهنم.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ الدأبُ: استمرار الشيء على حالة واحدة، يقال: هو دائب يفعل كذا، إذا استمر في فعله، أي دأب حال هؤلاء الكفرة، في تكذيب الحق، وعدم النجاة من عذاب الله، كحال آل فرعون، من دَأَبَ في العمل إذا كدح فيه ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مثل عاد وثمود ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ بيان وتفسير لدأبهم، كأنه قيل: كيف كان دأبهم؟ فقيل كذبوا الخ ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ بسبب ذنوبهم، ولم يجدوا محيصاً، فيكون هؤلاء الكفرة كحالهم أيضاً والذنب: الإثمُ يُستعمل فيما بين الرب والعبد، والجُناحُ بين الله والناس، وبين الناس والناس ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ تهويل للمؤاخذة، وتنبيهٌ على أن لهم عذاباً مؤخراً، سوى ما نزل بهم من العذاب العاجل.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ رُوي عن ابن عباس أن يهود أهل المدينة، قالوا لمَّا هُزم المشركون يوم بدر: هذا والله النبيُّ الأميُّ، الذي بشَّرنا به موسى عليه السلام، وأرادوا التصديق؛ ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة له أخرى، فلما كان يوم أحد شكُّوا وقالوا: لا والله ما هو به، فلم يسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنقضوا ذلك العهد، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ عن قريب، فالمراد من الموصول اليهود، وقيل: الآية في مشركي مكة وهي من دلائل النبوة، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده، فقتل وأجلى ﴿ وَتُحْشَرُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ المستقر، وهو غاية حشرهم.

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم أنكم ستغلبون ﴿ فِى فِئَتَيْنِ ﴾ أي فرقتين، وأجمع المفسرون على أن المراد بهما رسول الله وأصحابه، ومشركو مكة ﴿ الْتَقَتَا ﴾ أي تلاقيا بالقتال يوم بدر ﴿ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهم المؤمنون، لكن ذكر مكانه من أحكام الإيمان، الجهاد في سبيل الله، مدحاً لهم، وإيذاناً بأنه المدار في تحقيق النصر ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ أي فئة أخرى ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ وإنما لم توصف هذه الفئة، لإسقاطهم عن درجة الاعتبار ﴿ يَرَوْنَهُم ﴾ أي ترى الفئة الأخيرة الفئة الأولى ﴿ مِّثْلَيْهِمْ ﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين ﴿ رَأْىَ الْعَيْنِ ﴾ رؤية ظاهرة معاينة، رُوي عن سعيد بن أوس أنه قال: أسر المشركون رجلاً من المؤمنين، فسألوه كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشرة، قالوا: ما كنا نراكم إلاَّ تضعفون علينا!! أراهم الله تعالى كذلك مع قلَّتهم، ليهابوهم، ويجتنبوا قتالهم، فئة الكفار كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً، وهم شاكو السلاح، وفيهم صناديد قريش، ومن الإبل سبعمائة بعير، ومائة فرس، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان معهم سبعون بعيراً، ومن الخيل فرسان فقط، وكان ذلك اليوم في السابع عشر من شهر رمضان، سنة اثنتين من الهجرة النبوية ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ ﴾ يقوّي

من غير توسط الأسباب المعتادة ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ بعونه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من أراد نصرته، كما أيّد المؤمنين في بدر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي التقليل أو التكثير، وغلبة القليل على الكثير ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لعبرةً عظيمة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي البصائر والعقول السليمة، التي تستفيد من الدلائل الإلهية.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ
مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ
مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ
مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾
ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾
ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ
بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا
بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ بيانٌ لحقارة شأن الحظوظ الدنيوية، وتزهيد الناس فيها، وتوجيه رغباتهم إلى ما عند الله تعالى، إثر بيان عدم نفعها للكفرة، الذين يتعززون بها، والمراد بالناس الجنسُ، والمزين هو الله تعالى عند الجمهور، وإنما زينها للابتلاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جعلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهم﴾ الآية، وعن الحسن: المزيِّنُ هو الشيطان، لقوله تعالى: ﴿وزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ﴾ والتزيين للشهوات، يُطلق ويراد بها حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إليه تعالى حقيقة، وأن يراد به الحض على تعاطي الشهوات، وهو مضاف إلى الشيطان، تنزيلاً لوسوسته منزلة الأمر بها، وكلامُ الحسن محمولٌ على التزيين بالمعنى الثاني ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي المشتهيات، سمَّاها شهوات مبالغةً، وإيماء إلى أنهم انهمكوا

في محبتها، حتى أحبُّوا شهوتها، والشهوةُ نزوع النفس وتَوَقَانُها إلى ما تريده ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وإنما بدأ بهنّ لأن الالتذاذ بهن أكثر، ولأنهن حبائل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال من النساء»[1] ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ لأن حبهم فطرةٌ وغريزة، وهم فلذات الأكباد، ولأنهم من ثمرات النساء في الفتن، واللفظ يشمل البنات أيضاً، بطريق التغليب ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ مأخوذ من القنطار للتأكيد، كقولهم بدرة مبدرة أي منضم بعضها على بعض ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطير ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلّمة من السومة وهي العلامة، أو المرعية من أَسَامَ الدابةَ إذا أرسلها للمرعى، والخيل جمع لا واحد له من لفظه، كالقوم، والرهط ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم وهي الإبل، والبقر، والغنم ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ الزرع مصدر، من مفعول ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما يتمتع بها في الدنيا أياماً قلائل، وهي زائلة وفانية ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ أي المرجع وحسن المنقلب، وهي الجنة دار المتقين.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أمر النبي ﷺ بتفصيل ذلك المجمل للناس، مبالغة في الترغيب أي هل أخبركم ﴿بِخَيْرٍ﴾ أي بما هو خير، وإبهام الخير لتفخيم شأنه، والتشويق إليه ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي مما فُصّل من تلك المستلذات، المزينة لكم، لأن نِعَمَ الدنيا مشوبة بالمضرة، ومنقطعة لا محالة، ونِعَمُ الآخرة خالية عن المضار، وباقية ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يدخل في هذا كل من اتقى الشِّركَ والمعاصي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزهة عن الدنس والقذر الحسِّي، والمعنوي ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي رضوان عظيم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رضاء الله تعالى، وقد نبه الله سبحانه بهذه الآية على نعمه، فأدناها نعم الدنيا،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ١١٨/٩ ومسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٧٤٠.

وأعلاها رضوان الله تعالى، لقوله: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وأوسطها الجنة ونعيمها ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي بأعمالهم، فيثيب أو يعاقب، وبصير بأحوال الذين اتقوا، ولذا أعدَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهارُ.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل: مَنْ أولئك المتقون؟ فقيل: هم الذين يقولون ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ إجابة لدعوتك ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ إنجازاً لوعدك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ المراد بها الصغائر والكبائر ﴿وَقِنَا﴾ بفضلك ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي أجرنا من عذاب جهنم.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي أعني بهم الصابرين على الإيمان، والطاعات، والمصائب ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قولاً بإخبار الحق، وإخلاص النية ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ المداومين على الإيمان والطاعة، المواظبين على العبادات ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ أموالهم في سبيل الله ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ الأسحار جمع سَحر، بفتح الحاء أواخر الليالي، وخص الأسحار لأنها وقت إجابة الدعاء، لأنه وقت الخلوّ والنفسُ أصفى، والروحُ أجمع، سيَّما للمتهجّدين!!.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بيَّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها، وإنزال الآيات الناطقة بها، عبَّر عنه بالشهادة إيذاناً بقوته في إثبات المطلوب، فشبَّه سبحانه تلك الدلائل، بشهادة الشاهد في البيان ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالإقرار لما عاينوا من عظيم قدرته ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي الأنبياء والعلماء الذين عرفوا وحدانيته بالدلائل القاطعة شهدوا بالإيمان ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ مقيماً للعدل في جميع أموره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر للتأكيد، أي لا معبود بحق إلا الله ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ يعني أنه العزيز الذي لا يُغالب، والحكيم الذي لا يعدل عن الحق.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ
مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ أي لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام، الذي هو التوحيد والتدرُّع بشريعة الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله وإخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ هم اليهود، والنصارى والذي اختلفوا فيه الإسلام، كما يشعر به السياق، والتعبير عنهم بهذا العنوان، زيادة تقبيح لهم، فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح، ثم اختلافهم في دين الإسلام حيث قال قوم: إنه حق، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون، واختلافهم في التوحيد، فثلَّث النصارى، وقالت اليهود عزير ابن الله ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي بعدما علموا حقيقة الأمر، وتمكنوا من العلم بالآيات والحجج ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ما كان ذلك الاختلاف إلاّ حسداً بينهم، وطلباً للرياسة لا لشبهة وخفاء في الأمر ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الناطقة بوحدانيته، أو بأي آية كانت من آياته تعالى وبحججه ودلائله، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي فإنه تعالى سريع الحساب يأتي حسابه عن قريب، ويتم بسرعة.

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ في الدين وجادلوك فيه، بعدما أقمت الحجج،

والضمير للذين أوتوا الكتاب من وفد نجران ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي أخلصت نفسي، وقلبي، وجملتي لله وحده، وفيه إشارة إلى أن الجدال معهم ليس في موقعه، لأن الجدال إنما يكون في أمرٍ خفي، والذي جادلوا به أمر مكشوف، وهو الدين القويم الذي ثبتت صحته ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي أنا وأتباعي على الإسلام ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي وقل لليهود والنصارى عامة ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ أي الوثنيين من العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما فعل المؤمنون، فإنه قد جاءكم من الآيات ما يوجبه، أم أنتم على كفركم، وإصراركم على العناد؟ وفي ذلك تعبير لهم بالمعاندة، وقلة الإنصاف، وتوبيخ بالبلادة ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ أي اتصفوا بالإسلام، والدين الحق ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ فقد أصابوا الرشد، حيث خرجوا من الضلالة إلى الهدى ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن قبول الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي لن يضرُّوك شيئاً فإنك رسول، وما عليك إلا أن تبلغ الرسالة، وقد بلغت ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم، فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعدٌ ووعيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أيَّ آية كانت، فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقيقة الإسلام ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ سوى الأنبياء عليهم السلام، ولعل تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو أسلوب تهكم وسخرية.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الصفات القبيحة ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ ضاعت وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها من البر والإحسان، فلهم اللعنة والخزي ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يدفعون عنهم العذاب.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ
بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ
إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا
جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا
يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ
مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ
وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي التوراة، وفيه تقبيح لصنيعهم، حيث رفضوا حكم التوراة ﴿ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي إلى كتابهم المنزل من عند الله وإضافته إلى اسم الله الجليل لتشريفه، وتأكيد وجوب المراجعة إليه ﴿ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ روي أن رجلاً وامرأةً من أهل خيبر زنيا، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ ورجوا أن تكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال علماؤهم ليس عليهما الرجم، فقال ﷺ بيني وبينكم التوراة فأبيا ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ﴿ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ أي وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التولي والإعراض ﴿ بِأَنَّهُمۡ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ أي خدعهم في زعمهم ذلك قولهم ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقولهم: إن الله وعد يعقوب أن لا يعذب أبناءه.

﴿ فَكَيۡفَ ﴾ رد لقولهم المذكور وإبطال بما سيحيق بهم من الأهوال أي فكيف يكون حالهم ﴿ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ ﴾ لجزاء يوم ﴿ لَّا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ لا

شك في وقوعه ووقوع ما فيه. روي أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ جزاء ما كسبت، من غير نقص أصلاً كما يزعمون وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط، وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون في النار ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ ﴾ الميم عوض عن يا، ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم وأصله يا الله ﴿ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ مالك جنس الملك بحيث يتصرف فيه كيفما يشاء إيجاداً وإعداماً، إحياء وإماتة، من غير مشارك فيه وهو نداء ثان أي يا مالك الملك ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ مفعوله محذوف أي من تشاء إيتاءه إياه ﴿ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ أي ممن تشاء نزعه منه وهذا بيان لبعض وجوه التصرف، الذي تستدعيه مالكية الملك، وتحقيق لاختصاصها به تعالى، المُلْكُ، والمالُ، والجاه، الكل لا يحصل إلاّ من الله عز وجل، أمّا تكثير المال، فقد نرى الرجل في غاية الكياسة، لا يحصل له مع الكدّ الشديد قليل من المال، ونرى الأبله الغافل، قد يحصل له من الأموال ما لا يُحصى، وأما الظفر فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، وعند هذا يظهر قوله تعالى: ﴿تُؤتي الملك من تشاء﴾ ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ أن تعزه في الدنيا ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ بالإدبار والخذلان ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ أي ما تفعله الخيرُ كله، لا بقدرة أحد من غيرك تتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئتك، والخير والشر بيده تعالى، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر، لرعاية الأدب، ونبّه على أن الشر بيده، بقوله: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما سبق، والشر غير مقصود بالذات بل إنما قضاها الله تعالى لحكمة ومصلحة، ألا ترى أن الحجامة، والجراحة، وشرب الدواء الكريه ونحوها من الأمور المؤلمة لكونه وسيلة إلى حصول الصحة، يُعدُّ خيراً لا شراً، وكلُّ قضاء الله تعالى من هذا القبيل.

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ الإيلاجُ: الإدخالُ، واستعير لزيادة النهار في الليل وعكسه، بحسب المطالع والمغارب في أكثر البلدان، ولا يضر تساوي الليل والنهار دائماً عند خط الاستواء، لأنه يكفي الزيادة والنقصان فيهما في الأغلب، أي تنقص من ساعات الليل، وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار، وتزيد في الليل ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ إخراج الحي من الميت وبالعكس إنشاء الحيوانات والنباتات من موادها، مثل إخراج الزرع من الحب، والنخلة من النواة، والفرخة من البيضة، والإنسان الحيّ من النطفة، وعكس ذلك، وقيل: إخراج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل، وعكسه، والأكثرون على الأول، وهو للحقيقة أقرب ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا يعرف الخلق مقداره، وإن كان معلوماً عنده، ولمَّا بيَّن سبحانه أن إعطاء الملك والإعزاز منه تعالى، نبَّه المؤمنين على أنه لا ينبغي أن يوالوا أعداء الله تعالى.

فقال تقدست أسماؤه:

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى
ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا
بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ
ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا۟
ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٢) ﴾.

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نهوا أن يوالوا الكافرين، لقرابة بينهم، أو لصداقة ونحوهما، حتى لا يكون حبهم وبغضهم إلا في الله، فإن قيل: إن المحبة للقرابة خارجة عن الاختيار؟ قلنا: المراد هنا ما يقتضيه الإسلام، من بغض وحبّ شرعيين، يصح التكليف بهما، وقد كرر هذا النهي في القرآن، وحمل الموالاة على ما يعمُّ الاستعانة بهم في الغزو، وجوّز بعضهم الاستعانة بشرط الحاجة والوثوق، ومن الناس من استدلَّ بالآية، على أنه لا يجوز جعلهم عمالاً ولا استخدامهم في أمور الديوان، وكذا أدخلوا في الموالاة المنهيّ عنها السلام، والتعظيم، والتوقير في المجالس ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء، والتعبير عنه بالفعل، للاستهجان بذكره ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ الكلام على حذف المضاف، أي ليس من ولايته أو دينه، وتنوين شيء للتحقير، أي ليس في شيء يصح أن يطلق عليه اسم الولاية، أو الدين، لأن موالاة المتضادّيْن مما لا تكاد تدخل في الخاطر، كما قال القائل:

تَـوَدُّ عَـدُوّي ثـم تَـزْعُـمُ أَنَّنِـي صَدِيقُكَ لَيسَ النَّوْكُ عنكَ بِعَازِبِ

النَّوكُ: الحُمْقُ والجنونُ.. وقال آخر:

إذَا وَالَـىٰ صَـدِيقُـك مـن تُعَـادِي فَقَــدْ عَــادَاكَ وانقطَــعَ الكَــلاَمُ

الموالاة خلافُ المعاداة وهي من الولى وهو القرب ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ﴾ استثناء مفرغ كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء في حال من الأحوال، إلاّ حال اتقائكم ﴿مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلا أن تخافوا من جهتهم، أمراً يجب اتقاؤه، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة، وإبطان المعاداة، مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء، من غير أن يستحل حراماً من المحرمات، كنقل أخبار المسلمين إليهم، والاستعانة بهم، والآيةُ دليل على مشروعية التقية،

وعرَّفوها بمحافظة النفس، والمال، والعرض، من شر الأعداء، وعدَّ قوم من باب التقية، مداراة الكفار، والفسقة، والظلمة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم لكفّ أذاهم، ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها، لحديث «إنَّا لنبَشُّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم»(١) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي عقاب نفسه وفيه تهديد عظيم، حيث علَّق التحذير بنفسه أي ذاته المقدسة، فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إلى حكمه، وإلى جزائه تعالى فيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ ما في قلوبكم، ومن جملتها موالاة الكفرة، وإنما ذكر الصدر لأنه وعاء القلب ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ فيما بينكم مما لا يرضي الله ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيؤاخذكم بذلك ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا من باب إيراد العام بعد الخاص، تأكيداً له وتقريراً ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وبذلك يكمل وجه التحذير، فكأنه سبحانه قال: ويحذركم الله عقابه لأنه متصف بالعلم الذاتي، محيط بالمعلومات كلها، فلا تجترئوا على عصيانه، وموالاة أعدائه، إذ ما من معصيةٍ إلا وهو مطَّلعٌ عليها، وقادر على العقاب لمن فعلها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وإن كان مثقال ذرة ﴿مُّحْضَرًا﴾ تجد جزاءها محضراً بأمر الله ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ أي وما فعلته ﴿تَوَدُّ﴾ وتتمنى يوم ذلك ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي بينها وبين ما عملت من السوء ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ الأمدُ: غاية الشيء

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب تعليقاً عن أبي الدرداء ١٠/ ٥٢٧ بلفظ: «إنَّا لَنَكْشِرُ - أي نبتسم - في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم» ويؤيد هذا حديث عائشة: استأذن على النبي رجل، فقال: «ائذنوا له فبئس أخو العشيرة، فلمّا دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلتَ ما قلتَ ثم ألنتَ له في القول؟ فقال: أيْ عائشة، إن شرَّ الناس منزلةً عند الله، من تركه الناسُ اتّقاء فُحْشه» رواه البخاري.

ومنتهاه، والمراد هنا الغاية الطويلة، والمسافة البعيدة كما في قوله تعالى: ﴿ياليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كرّر للتأكيد والتذكير، ذكره أولاً للمنع عن موالاة الكفار، وهنا للحثِّ على عمل الخير، والمنع عن عمل الشر ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أفاد أن تحذيره تعالى، من رأفته بهم، ورحمته الواسعة. ولمَّا زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله كما قالت اليهود ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقالت النصارى: إنما نعبد المسيح حباً لله وقال المشركون: إنما نعبد الأصنام حباً لله.

نزل في حقهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء بحيث يحملها على ما يقربها إليه، أي قل لهم: إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأني رسوله ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ جواب للأمر أي يرض عنكم، فيقرِّبكم من جنابه عزَّ وجل ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن يتحبَّب إليه بطاعته، واتباع نبيه، فيغفر له ويرحمه.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله تفلحوا وتسعدوا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن قبول الطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لا يرضىٰ عنهم، ولم يقل لا يحبهم لقصد العموم، وللدلالة على أن التولي كفر، فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم، وإن محبة الله تعالى مختصة للمؤمنين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/ ٢١٤.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لمَّا بين الله تعالى، أن الدين المرضي عنده هو الإسلام والتوحيد، وأن اختلاف أهل الكتاب إنما هو للبغي والحسد، وأن الفوز برضوانه ومغفرته منوط باتباع الرسول ﷺ، شرع في تحقيق رسالته، وكونه من أهل النبوة، ثم نص على أن جميع الرسل دعاة إلى عبادة الله وحده، والمراد بآل إبراهيم: إسماعيل، وإسحق والأنبياء من أولادهم الذين من جملتهم النبي ﷺ والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم.

﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾ يعني ذرية واحدة، متسلسلة، بعضها يتشعب عن بعض في التقى والصلاح والدين ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال العباد ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمالهم البادية والخافية، فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، كقوله تعالى ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ ﴾ أي اذكر وقت قول امرأة عمران واسمها «حنّة» روي أنها كانت عاقراً لا تلد، فبينما هي في ظل شجرة، إذ رأت طائراً

يطعم فرخه، فحنَّتْ إلى الولد وتمنته، فقالت: اللهم إنَّ لكَ عليَّ نذراً إن رزقتني ولداً، أن أتصدَّق به على بيت المقدس، فيكون من خَدَمته، فحملت وقالت ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾ وكان هذا النذر مشروعاً عندهم في الغلمان ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ مخلصاً للعبادة ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ﴾ أي ما نذرته، وهذا في الحقيقة استدعاء الولد، إذ لا يتصور القبول بدون تحقق المقبول، وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلا طلب رضاء الله تعالى والإخلاص في دعائه ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لجميع المسموعات، ومن جملتها تضرعي ودعائي ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بكل المعلومات، التي من زمرتها ما في ضميري من النية.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ أي فلما ولدت المولود وكان أنثى، قالت على وجه التحسر والاعتذار، مظهرة الأسى والحسرة:

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ وهذا الكلام ليس من قبيل الإخبار، بل تحسرت إلى مولاها، لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها، أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وجعلها وابنها آية للعالمين، وهي غافلة عن ذلك ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهبت، فإنّ دائرة علمها لا تحيط بما فيها من جلائل الأمور، أو اعتذار آخر منها ببيان أن الذكر ليس كالأنثى، في المزية وصلاحية خدمة المتعبدات، فإنهن بمعزل من ذلك ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ وإنما ذكرت ذلك لربها، تقرباً إليه، وطلباً لأن يعصمها ويصلحها ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ أجيرها بحفظك، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، وفي ذكر «ذريتها» رمز إلى طلب بقائها، وطلب التناسل منها، والإعاذةُ: الالتجاء إلى الغير، يقال عاذ فلان بفلان إذا استجار به ﴿ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أي من شر الشيطان الرجيم، المطرود من رحمة الله ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلاَّ والشيطان يمسُّه حين يولد،

فيستهلُّ من مسِّه صارخاً إلاَّ مريم وابنها»[1] فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ قبل الله مريم، ورضي بها في النذر مكان الغلام الذَّكَر، ﴿رَبُّهَا﴾ مالكها ومبلغها إلى كمالها اللائق ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي تقبلها قبولاً حسناً ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ربَّاها تربية كاملة بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ أي جعله كافلاً لها، وضامناً لمصالحها، وقائماً بأمورها، وضمها إلى خالتها أم يحيى، حتى إذا بلغت مبالغ النساء، بنى لها محراباً في المسجد، أي غرفة في المسجد يصعد إليها بسلم. روي أنه عليه السلام كان يأتيها بطعامها وشرابها، كل يوم، وكان لا يدخل عليها إلاَّ وحده، وإذا خرج أغلق عليها الأبواب، وذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس أو نوعاً منها غير معتاد فيتعجب: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾؟ أي من أين لك هذا الرزق، الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آتٍ في غير حينه؟ والآية دليل جواز الكرامة للأولياء ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ يعني من الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرزقه ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلاً به.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (٤١)﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٣٣٨/٦ وفي تفسير سورة آل عمران، ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٦٦ باب فضل عيسى عليه السلام.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أي: في ذلك المكان أو الوقت، روي عن الحسن قال: لمّا وجد زكريا عند مريم ثمر الصيف في الشتاء وسألها أنى لك هذا؟ قالت: هو رزق من عند الله، طمع زكريا في الولد، وقام واغتسل، ثم ابتهل في الدعاء لله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أعطني من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ مباركة صالحة وطلبه بلفظه الهبة لأن الهبة إحسان محض، وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد لكبر سنه ولا للوالدة لكونها عاقر، فكأنه قال: أعطني ذرية من غير طريقٍ معتاد، والمراد من الذرية الولد الواحد ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أراد كثير الإجابة، وهو تعليل لما قبله، وتحريك لسلسلة الإجابة، وفي ذلك اقتداء بجدّه الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿الحمدُ للهِ الذي وَهَبَ لي على الكِبَر اسمَاعيلَ واسحقَ إنَّ ربِّي لَسَميعُ الدعاءِ﴾(١) .

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المنادي كان جبريل وحده، والجمع للتعظيم ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي قائماً في الصلاة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي بأن الله يبشرك بولادة غلام اسمه يحيى، سمي بذلك، لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، حتى لم يقم بمعصية قط، وفيه تلميح أن في الصلاة إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المراد بالكلمة عيسى عليه السلام، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وإنما سمي عيسى بذلك، لأنه خُلِق بكلمة «كن» من دون سبب عادي، ويحيي أول من آمن بعيسى عليه السلام، وكان أكبر من عيسى بستة أشهر كما قال الضحاك وغيره ﴿وَسَيِّدًا﴾ فسره ابن عباس بالكريم، وأصل معنى السيد من يسود قومه، ويكون له أتباع وأنصار، ثم أطلق على كل فائق في الدين، فإنه عليه السلام كان سيد قومه، وله أتباع منهم ﴿وَحَصُورًا﴾ هو

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٩.

الذي لا يقرب النساء، مع القدرة على ذلك، قاله ابن عباس، ومن فسَّره بأنه كان عنيّناً فباطل، إذ العِنَّةُ عيبٌ لا يجوز على الأنبياء ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ناشئاً منهم، وكائناً من عدادهم، والمراد من الصلاح صلاح الدين.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ لم يخاطب المَلَك المنادي له، بل جرى على نهج دعائه السابق، مبالغة في التضرع والمناجاة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟ استبعاد من حيث العادةُ واستعظام للقدرة، لشكٍّ منه، وفيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاماً عند التبشير (وأنّى) بمعنى كيف، أي: كيف يكون لي غلام ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن، وأثّر فيَّ وكانت له تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي لا تلد، من العقر وهو القطعُ من الأولاد، قال ذلك مع سبق لدعائه، وقوة يقينه بقدرة الله، استعظاماً لقدرته تعالى ﴿قَالَ﴾ أي الرب تعالى ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي ما يشاء أن يفعله، من الأفعال العجيبة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي علامة أعرف بها الحَبَل، وإنما سألها استعجالاً للسرور، ليتلقى تلك النعمة بالشكر ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أن لا تقدر على تكلم الناس، وإنما حبس لسانه عن مكالمتهم خاصة، لتخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره، قضاءً لحق النعمة، وإنما خص «الناس» للإشارة إلى أنه غير ممنوع من الذكر، والتسبيح ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بنحو يد، أو رأس، قال جمهور المفسرين: عُقد لسانهُ عن تكليم الناس خاصة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحُبْسة، أي ذكراً كثيراً، أو زماناً كثيراً ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى وفي أصل اللغة أبكر: إذا خرج للأمر في أول النهار، ومنه بكَّر وابتكر، إذا تكلَّف الخروج في بداية الصباح.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ
نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ
ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ
أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ كلَّموها شفاهاً كرامة لها، والاصطفاء الأول تقبُّلها من أمها، وتفريغها للعبادة، وإغناؤها برزق الجنة، وتطهيرها عما يُسْتقذر من النساء، والثاني هدايتها وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات، وتبرئتها مما قذفته اليهود بإنطاق الطفل، وجعلها وابنها آيةً للعالمين، والمراد بالملائكة هو جبريل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سوياً﴾ ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ وهذه المقاولة قبل بشارتها بعيسى عليه السلام، وهي من باب التربية الروحانية، بالتكاليف الشرعية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اختارك حين تقبّلك من أمك، حيث ربّاكِ، ورزقك من أرزاق الجنة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مما يستقذر من الحيض والنفاس، أو من الذنوب ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل المراد بالاصطفائين واحد والتكرير للتأكيد، وقيل: الأول لخدمة بيت المقدس، والثاني لولادة عيسى عليه السلام.

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ أي أديمي الطاعة ﴿وَٱسْجُدِى﴾ تقديم السجود على الركوع ليقرن بالراكعين، والواو تفيد الاشتراك لا الترتيب ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي ولتكن صلاتك مع المصلين، وكانت رضي الله عنها مقدمة

على الطاعات والعبادات، متبتلة إليه عز وجل، مستعدة لفيضان الروح عليها.

﴿ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق، من قصة حنَّة أم مريم، وزكريا، ومريم ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ نلقيه إليك خفياً، والوحيُ يُطلق على الإشارة الخفية، ومنه قوله تعالى: ﴿فأوحَى إليهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعشِيّاً﴾ وعلى الإلهام الذي يقع في النفس، وهو أخفى من الإيماء، ومنه قوله تعالى: ﴿وأوحَيْنَا إلى أمِّ مُوسَى﴾ ويُطلق على ما يكون غريزة دائمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وأوحَى ربُّكَ إلى النَّحْلِ﴾ وعلى الإعلام في الخفاء كما قال سبحانه: ﴿يُوحي بعضُهم إلى بعض﴾ ووحي الله على أنبيائه، وهو ما يلقيه عليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم، وهو صلة بين عالم الغيب والشهادة، كما قال سبحانه ﴿وَمَا كَان لبَشَرٍ أن يكلّمهُ الله إلاَّ وَحْياً أو مِنْ وَرَاءِ حجَابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءَ..﴾[1] الآية. وصيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحي لم ينقطع ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ عندهم أي عند الذين اختلفوا في تربية مريم، وهو تقرير وتحقيق لكونه وحياً، فإن أمثال هاتيك الحوادث، إما المشاهدة، وإما السماع، وعدمُ السماع محّققٌ فبقي المعاينة، فنفيت في هذه الآية. ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ وهي قداحهم التي طرحوها في النهر، أو هي الأقلام التي يكتبون التوراة بها اختاروها للقرعة تبركاً ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ روي أن حنَّة لمَّا حملت مريم إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار، قالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت ابنة إمامهم، فقال لهم زكريا عليه السلام: إني أحقُّ بها، عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نُقرِعَ بيننا، فانطلقوا إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا، ورست أقلام غيره، فتكفَّلها زكريا ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

(١) سورة الشورى، آية ٥١.

﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾ في شأنها تنافساً في التكفل بها وتكرير ﴿وما كنت لديهم﴾ للدلالة على نبوته ﷺ، فإنه لم يكن حاضراً في الحالين، فمن أين عرف بذلك؟ لا شك أنه كان بطريق الوحي الإلهي.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾ بدل ﴿إذ قالت﴾ الأولى، وما بينهما اعتراض، وهذا شروع في قصة عيسى عليه السلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ﴾ أي بعيسى، والمراد بالكلمة قوله تعالى: ﴿كُنۡ﴾ باعتبار أنه خلق من غير أب بل بواسطة «كن» ﴿مِّنۡهُ﴾ أي كائنة منه تعالى، فالمعنى قال جبريل لمريم يا مريم: إن الله يبشرك من عنده ببشرى، وهي ولد يولد منك، من غير بعلٍ، وذلك الولد ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ﴾ وهو من الألقاب المشرّفة، كالصدِّيق، والفاروق، أصله المشيح بالعبرانية، ومعناه المبارك كقوله تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ بدل من المسيح، وإنما قال ابن مريم إعلاماً لها أنه يولد من غير أب، إذ الأولاد تنسب إلى الآباء، ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب، وفيه رد على النصارى فيما زعموه من بنوّته لله تعالى، ومن كان منسوباً لوالدته كيف يكون إلَهاً، أو ابن إله؟ ولم يذكر الله امرأةً باسمها في كتابه العزيز إلاَّ مريم لهذه الحكمة ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالنبوة، والتقدم على الناس ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بالشفاعة، وعلو الدرجة، والوجيهُ: ذو الجاه، وهو القوة والمنعة والشرف ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً، وكهلاً[1].

---

(١) ذكر علماء اللغة أن المولود ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا وُلد فهو وليدٌ، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، وإذا استغنى عن اللبن فهو فطيم، فإذا نبتت أسنانه فهو مثغر، فإذا قارب عشر سنين فهو ناشىء، فإذا قارب الحلم فهو مراهق، فإذا احتلم فهو غلام، فإذا ظهر شاربه فهو فتى، ثم ما بين الثلاثين إلى الأربعين هو شاب، ثم كهلٌ إلى أن يبلغ الستين، ثم إذا جاوزها فهو هرمٌ.

والمقصود بيان التسوية بين الكلامين، والمهدُ: مقرُّ الصبي حال رضاعه، وكان كلامه في المهد ساعة واحدة، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام، قاله ابن عباس[1] وقوله: ﴿وجعلني نبياً﴾ إخبارٌ عما يؤول إليه، وجُوّز أن يكون ذلك كرامة لمريم، دالة على براءة ساحتها، وتكليمُه كهلاً بعد نزوله من السماء، بناءً على ما ذهب إليه سعيد بن المسيب أنه عليه السلام رفع إلى السماء، وهو ابن ثلاث وثلاثين[2] وأنه سينزل إلى الأرض ويبقى حياً فيها مدة طويلةً من الزمن، كما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن كعب الأحبار ﴿وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وإنما ختم بكونه من الصالحين، لأن مقام الصالحين في مراتب الأنبياء أعظم المراتب، وذكر أحواله المختلفة إرشاداً إلى أنه بمعزل عن صفة الألوهية.

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ متضرعة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ أي من أين يكون ﴿لِى وَلَدٌ﴾ على وجه التعجب، واستعظام قدرة الله تعالى ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾؟ أي لم يصبني رجل، والمسيسُ هنا كناية عن الوطء، وهذا نفي عام للتزوج وغيره، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إيراد «يخلق» ههنا مكان «يفعل» هناك، لِمَا أن ولادة العذراء، من غير أن يمسَّ بها بشر، أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر، فكان الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام، ولذلك عقب ببيان كيفية الخلق فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ والمراد من هذا الجواب، بيان أن الله تعالى لا يعجزه أن يخلق ولداً بلا أب، لأنه أمر ممكن في نفسه، كيف لا وكثيراً ما نشاهد حدوث بعض الحيوانات على غير سبيل التولد، كحدوث الفأر عن المدر، والحيات عن

---

(١) كان أَوَّلُ كلامه عليه السلام قوله: «إني عبد الله آتاني الكتاب. .» وتكلَّم ببراءة أمه.

(٢) واختلف في زمن رسالته، فقيل: كانت في الصِّبا، والمشهور أنه كان ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، ثم رفع إلى السماء، وسينزل في آخر الزمان، لإكمال دعوته، فيكسر الصليب، ويقتل الدَّجَّال، ويحكم بشريعة الإسلام، كما ورد ذلك في كتب الصحاح، صلوات الله عليه، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

الشعر المتعفن، والعقارب عن الأراضي الملوّثة، والذباب عن الباقلّاء، إلى غير ذلك.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الكتابة وكان عليه السلام أحسن الناس خطاً في زمانه، أو جنس الكتب الإلٰهية ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي الفقه، قاله ابن عباس، وقيل: سنن الأنبياء ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إنما ذكر الإنجيل، لكونه معلوماً عند الأنبياء أنه سينزل، وقيل: علمُهُ موهبةٌ إلٰهية[1] ﴿وَرَسُولًا﴾ أي يجعله رسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي إلى كلهم، وتخصيص بني اسرائيل لخصوص بعثته إليهم، واليهود في أمره فرقتان: فرقة ترميه بأقبح ما رمت وهم أكثرهم، يرمونه بأنه ابن زنى، وفرقة يصدِّقون بمواعظه أنه لم يخالف التوراة، ويعتقدون أنه عابدٌ من عُبّاد بني إسرائيل وليس برسول ﴿أَنِّىٓ﴾ أي ناطقاً بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بمعجزة واضحة وإنما قاله وجاء بآيات، لأن الكل دلَّ على شيء واحد، وهو صدقه في الرسالة

---

(١) كما وهب الله خاتم المرسلين، العلم الواسع دون معلِّم ﴿وعلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ أصوِّر وأقدِّر ﴿لَكُم﴾ لأجل تحصيل إيمانكم ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ الهيئة: الصورة المهيأة أي مثل صورة الطير، والمراد بالخلق التصوير لا الإيجاد ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للهيئة المقدرة وذكر الضمير هنا مراعاة للمعنى، كما أنَّث في المائدة مراعاةً لِلَّفظ ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ حياً طيَّاراً كسائر الطيور ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره تعالى، نبه به على أن إحيائه من الله تعالى لا منه، ولكن بسبب النفخ فيه، وفي هذه المعجزة مناسبة لخلقه بنفخة جبريل من غير أب، ذُكِرَ أن بني إسرائيل طلبوا منه على سبيل التعنت ـ جرياً على عاداتهم مع أنبيائهم ـ أن يخلق لهم خفاشاً، فلما فعل قالوا: ساحر، ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ والأكمه: هو الذي ولد أعمى ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ وهو مرض يحدث في الجسم، يسبب للمريض حكّاً مؤلماً، يقال له: الوَضَحُ، ولم تكن العربُ تنفر من شيء نفرتها منه، وتخصيص هذين الأمرين، لأنهما ممّا أعيا الأطباء، وكان الغالب على زمان عيسى الطب، فكان إبراؤهما معجزةً له، ودليلاً على صدقه، كما أرى قوم موسى المعجزة بالعصا، حيث كان الغالب عليهم السحر وكان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ كرر بإذن الله، دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس أفعال البشر ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ بالمغيَّبات من أحوالكم التي لا تشكوُّن فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الخوارق الأربعة، وهذا من كلام عيسى عليه السلام، حكاه الله تعالى عنه، وقيل: هو من كلام الله ﴿لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾ دالة على صحة الرسالة دلالة واضحة حيث لم تكن أسباباً عادية كما يفعله الأطباء ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مصدّقين للحق غير معاندين، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم موفقين للإيمان انتفعتم بذلك البيان الساطع، بظهور الخوارق من العادات.

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي جئتكم ملتبساً بآية، ومصدّقاً بالتوراة، ومعنى تصديقه الإيمان بجميع ما فيه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ أي

وجئتكم لأحلَّ لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في شريعة موسى كالشحوم، والتروب والسمك، ولحوم الإبل، والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخاً لشرع موسى عليه السلام، وقيل: إن الإنجيل لم يخص أحكاماً، ولا حوى حلالاً وحراماً، ولكنه رموز وأمثال، ومواعظ وزواجر ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كرر للتأكيد ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يا معشر بني إسرائيل، فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، ثم وضحه بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فإنها دعوة الحق، المجمع عليها فيما بين الرسل، أي أطيعوني فيما أدعوكم إليه، وكان عليه السلام يصلي نحو بيت المقدس، ويحرم لحم الخنزير، ويقول بالختان، إلاَّ أن النصارى غيَّروا ذلك بعد رفعه، فاتخذوا يوم الأحد بدل يوم السبت وصلوا نحو المشرق، وأحلوا لحم الخنزير، وحملوا الختان على ختان القلب وغير ذلك.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك

بالحواس، وأصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، وقد استعير هنا للعلم بلا شبهة، والمراد بالكفر إصرارهم عليه، وعتوهم فيه مع العزيمة على إيقاع مكروه به، وقد صح أنه لقي من اليهود ـ قاتلهم الله ـ شدائد كثيرة، عن ابن عباس قال: كان اليهود يجتمعون على عيسى ويستهزئون به، ويقولون: يا عيسى ما أكل فلان البارحة؟ وما ادخر في بيته؟ فيخبرهم ويسخرون منه، وكانوا عارفين بأنه المسيح المبشر به، في التوراة، فلما أظهر الدعوة اشتد ذلك عليهم، فأخذوا في أذاه وكفروا به، أي فلمَّا أحسَّ كونه صادراً منهم ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ متعلق بمحذوف أي ملتجئاً إلى الله، وقيل معناه: من ينصرني مُنهياً نصره إلى الله؟ كأنه طلب منهم أن ينصروه لوجه الله تعالى، لا لغرض آخر ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حواريُّ الرجل: خاصته، من الحَوَر وهو البياض الخالص، سمي به أصحاب عيسى لخلوص نيتهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي صدقنا بأن الله ربنا ورب كل شيء ﴿وَٱشْهَدْ﴾ أنت يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وإنما طلبوا شهادته تأكيداً لإيمانهم، وإيذاناً بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية، وكانوا اثني عشر رجلاً.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ تضرعوا إلى الله عز وجل، مبالغة في إظهار أمرهم ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ في كل ما يأتي به من أمور الدين ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدانيتك.

﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي الذين أحسَّ منهم الكفر من اليهود بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة، والمكر في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة، ولا يسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾[1] أي جازاهم

---

(١) المكر في الأصل الخداعُ، وإذا نُسب إلى الله سبحانه، فالمراد به استدراج العبد الكافر والعاصي في غفلته، حتى يوقعه في الهلكة، كما قال سبحانه: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ تشبيهاً لذلك بالخداع، فتنبه والله يرعاك!!.

على مكرهم، حين رفع عيسى عليه السلام وألقى شَبَهَه على من قصد اغتياله، حتى قُتِل. روي أنهم قصدوا قتله، فدخل عيسى بيتاً فيها روزنة - أي طاقة - فرفعه جبريل من تلك الروزنة، فدخل الرجل الخبيث الذي أراد قتله البيت، فألقى الله عليه شَبَهَهُ، فخرج يخبرهم بأنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه، فلم يلتفتوا إلى قوله، ثم اختلفوا وقالوا: وجهه وجه عيسى، وبدنه بدن صاحبنا، فإذا كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أقواهم مكراً وأقدرهم على إيصال الضرر للظالم والفاجر من حيث لا يحتسب.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي مستوفي أجلك، ومؤخرك إلى أجلك المسمى، عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض وزعم النصارى أن الله تعالى، أماته سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء والصحيح كما قاله القرطبي أن الله رفعه من غير وفاةٍ ولا نوم، وهو اختيار الطبري، والرواية الصحيحة عن ابن عباس ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ إلى محل كرامتي، ومقر ملائكتي ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ من سوء جوارهم وقصدهم الخبيث ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ ﴾ في التوحيد وهم أهل الإسلام، دون الذين كذبوه من اليهود والنصارى، روي هذا عن قتادة والربيع، وقيل: هم النصارى، والمراد من الاتباع مجرد الاتباع والمحبة ﴿ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ بدين التوحيد ونبوة عيسى، أي يعلونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتّبعوه من آمن بنبوته، من المسلمين والنصارى ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ غاية للجعل، وأما بعدها فيفعل الله بهم ما يشاء ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ في الآخرة وغلب المخاطب على الغائبين ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ إثر رجوعكم إليَّ ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ في أمر الدين.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ من أتباعك ﴿ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أي ليس لهم ما نعين يمنعونهم من عذابنا في الدارين.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بما أرسلت به ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بما

فرضتُ عليهم، وشرعتُ لهم ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ جزاء أعمالهم كاملة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم ولا يرحمهم، وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متجاوزون الحدود.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وغيره ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ نخبرك به، وإنما أضاف التلاوة إلى ذاته تعالى لأنه بأمره ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ أي المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه، أو المشتمل على الحكم، يريد به القرآن.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي حاله وشأنه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ في تقديره وحكمه ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ كشأن آدم عليه السلام، وحاله العجيبة التي لا يرتاب فيها مرتاب، وهذه الآية نزلت في محاجة نصارى وفد نجران، فقد روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: مالك تحقِّر صاحبنا؟ قال: ما أقول؟ قالوا تقول: إنه عبد الله قال: أجل هو عبد الله ورسوله، فغضبوا وقالوا: هل رأيتَ أحداً من غير أب، فأبوه هو الله، وهو ابنه لا عبده، فقال ﷺ إن آدم ما كان له أب ولا أم، فكذا حال عيسى ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ توضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما، فإن إنكار خلق عيسى بلا أب، ممن يعترف بخلق

آدم بغير أب وأم، مكابرةٌ وعناد ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي صِرْ بشراً فصار، وفي الآية دلالة على صحة النظر والاستدلال، ثم إن الظاهر أن عيسى خلقه سبحانه من مريم، بجلعها قابلة لذلك ومستعدة له.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هذا هو الحق، الذي أخبرتك به من نبأ عيسى، لا ما يزعمه النصارى من ألوهيته ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات أو لكل سامع، وفي هذا الأسلوب فائدتان: **إحداهما**: أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب ليزداد ثباته، فيكون نوراً على نور، **والثاني**: أن السامع يتنبه بهذا وينزجر عما يورث الامتراء.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي جادلك في شأن عيسى من النصارى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ من الآيات الموجبة للعلم ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا۟﴾ هلموا بالرأي والعزم ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يدع كل منا ومنكم نفسه، وأعزَّة أهله، وفي تقديمهم على النفس، مع أن الرجل يخاطر بنفسه من أجلهم، ويحارب دونهم، للإيذان بكمال أمنه ﷺ عليهم، وأنه لن يصيبهم شائبة من الأذى، لثقته بأنه على الحق ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتباهل ونتضرع إلى الله أن يهلك الكاذب منا، والبهلةُ: الدعاءُ باللعنة ثم شاعت في مطلق الدعاء، كما يقال: فلان يبتهل إلى الله تعالى في حاجته، إلا أنه هنا يفسر باللعن، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي نقول لعنة الله على الكاذبين، ولمَّا قرأ ﷺ هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: نرجع وننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي معه وعلي خلفها[1]، وقال ﷺ: إذا أنا دعوتُ

---

(١) لما أنزل الله هذه الآية: ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً، وفاطمة، وحسَناً، وحُسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢١٠.

فأمِّنوا، فقال أسقف نجران يا معشرَ النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، فقالوا يا أبا القاسم: رأينا أن لا نباهلك اليوم، قال ﷺ: فإذا أبيتم المباهلة أسلموا، فأبوا فقال ﷺ: أناجزكم أي أحاربكم فقالوا: لا نحارب، ولكن نصالحكم على أن ندفع لكم كل عام ألفي حلة، وثلاثين درعاً من حديد، فصالحهم على ذلك، **قال بعض العارفين**: إنَّ لمباهلة الأنبياء، تأثيراً عظيماً، لاتصال نفوسهم بروح القدس، وتأييد الله إياهم به، وهو المؤثر بإذن الله تعالى، ولذا خاف النصارى، وقبِلوا دفع الجزية للنبي ﷺ.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما قص من نبأ عيسى ومريم ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ دون ما ذكروه من أكاذيب النصارى واليهود، والقصص من القصِّ وهو تتبع الأثر، قصصت الخبرَ قصاً حدَّثتُ به على وجهه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صرح فيه بمن المزيدة للاستغراق، تأكيداً للرد على النصارى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه، في القدرة التامة، والحكمة البالغة، ليشاركه في الألوهية.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن التوحيد، وقبول الحق الذي جاءك من عند الله، بعدما عاينوا تلك الحجج النيرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم، ووضع المظهر ليدل على أن الإعراض عن التوحيد، إفسادٌ للدين، والاعتقاد، المؤدي إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نزلت في وفد نصارى نجران ﴿تَعَالَوْا۟﴾ هلمُّوا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ أي كلام، وإطلاقها على ذلك من باب المجاز ﴿سَوَآءٍ﴾ عدل،

قاله ابن عباس: أي مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها الرسل والخَلْقُ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي نوحده بالعبادة، ونخلص فيها ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له، في استحقاق العبادة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحبار، فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلاً منهم بشرٌ مثلنا، فكيف يكونون أربابا!؟ ولمّا نزلت هذه الآية، قال عدي ابن حاتم: «ما كنا نعبدهم يا رسول الله» فقال ﷺ: «أمَا كانوا يحلّلون لكم، ويحرّمون، فتأخذون بقولهم؟ قال نعم، فقال ﷺ هو ذاك»؟[1]. **قال ابن جريج**: أي لا يطع بعضُنا بعضًا في معصية الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن موافقتكم بعد عرضكم عليهم، فاعلموا أنهم لزمتهم الحجة، وإنما أبوا عناداً ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟﴾ أي أنصفوا واعترفوا ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دونكم، انظروا إلى ما روعي في هذه القصة، من المبالغة في الإرشاد، وحسن التدرج في المحاجة، حيث بيَّن تعالى أولاً أحوال عيسى، وما تواردَ عليه من الأطوار، المنافية للإلٓهية، فلما ظهر عنادهم، دُعوا إلى المباهلة، بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها، دعوا إلى ما اتفق عليه عيسى، وسائر الأنبياء من التوحيد، ثم لما ظهر عدم إجدائه أمروا أن يجهروا بالإيمان ﴿قولوا بأنا مسلمون﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة بنحوه ٥/ ٢٦٠.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ الكلام على حذف المضاف، أي دين إبراهيم، لأن في ذاته ليس فيه مجادلة، روي أنه اجتمع عند رسول الله ﷺ نصارى نجران، وأحبار اليهود، فتنازعوا، فقال الأحبار: ما كان إبراهيم إلاَّ يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى الآية، أي فقل لهم ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ أي إن اليهودية والنصرانية، إنما حدثتا بعد نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة، فقد كان بين موسى وإبراهيم قرابة ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة، وقيل ألفا سنة ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أي أفلا تتفكرون فتعقلون بطلان قولكم؟.

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ ﴾ ها، للتنبيه وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، نُبهوا بها على حالتهم التي غفلوا عنها، أي أنتم ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الأشخاص الحمقى ﴿ حَٰجَجۡتُمۡ ﴾ أي جادلتم ﴿ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾ أي في شأن عيسى، وفي التوراة والإنجيل ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌۚ ﴾؟ من أمر إبراهيم، ولا ذكر لدين إبراهيم في كتابكم قطعاً ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي والله يعلم الحقَّ، وأنتم جاهلون به ثم كذَّبهم بقوله:

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا ﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان، من أنَّ إبراهيم عليه السلام، ما كان موجوداً عند نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً؟ ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا ﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة ﴿ مُّسۡلِمٗا ﴾ مؤمناً منقاداً لله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ تعريض بأنهم المشركون، لإشراكهم بالله عزيراً، والمسيح، ورد لادعاء المشركين أنهم على ملّة إبراهيم.

﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أولى أفعل تفضيل أي أقرب الناس وأحقهم بإبراهيم ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ من أمته، وكانوا على شريعته في زمانه وبعده ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ أي والنبي محمد ﷺ الذي جاء بالحنيفية السمحة، كما قال

سبحانه: ﴿ثمَّ أَوحَيْنَا إِليكَ أن اتَّبعْ ملَّة إبراهيم حَنِيفاً..﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي والمؤمنون من أمة محمد ﷺ فهم الجديرون بهذا الفضل، وكونُ المتبعين لإبراهيم في زمانه أولى الناس به ظاهر، وكون نبينا ﷺ أولاهم لموافقة شريعته لشريعة إبراهيم[1]، وكون المؤمنين من هذه الأمة كذلك لتبعيَّتهم له فيما جاء به ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم بالحسنى لإيمانهم، كما هو شأن الولي، ولم يقل «وليهم» تنبيهاً على الوصف الذي يكون الله تعالى ولياً لعباده، وهو الإيمان.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ
دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ
رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الطائفةُ: فرقة من الناس وأقلها ثلاثة، والمشهور أنها نزلت، حين دعا اليهود حذيفة، وعمَّاراً، ومعاذاً، إلى اليهودية ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ كلمة لو تفيد التمني[2] ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾ جملة

---

(١) في الحديث الشريف «إن لكل نبيٍّ ولاةً من النبيّين، وإن وليي أبي وخليلُ ربي ـ يعني إبراهيم ـ ثم قرأ ﷺ: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين﴾» سنن الترمذي ٥/ ٢٠٨.

(٢) جواب «لو» محذوفٌ تقديره: ودَّت إضلالكم لو يضلونكم لسُرُّوا وفرحوا بذلك.

حالية جيء بها للدلالة على رسوخ المخاطبين، وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم، وفيه الإخبار بالغيب، إذ لم يتهود مسلمٌ ولله الحمد ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، وعذابهم يضاعف بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، وفي نفي الشعور عنهم مبالغة في ذمهم.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل، ودلت على نبوته ﷺ أو لم تكفرون بآيات القرآن وأنتم تعلمون ما يدل على صحتها؟ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي تعلمون بالمعجزات أن القرآن حق، والإخبار بما يكتمون في أنفسهم معجز.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بتحريفكم، وإبراز الباطل في صورة الحق ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نعت الرسول ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بما تكتمونه؟

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم رؤساؤهم وأحباروهم، قالوا لأتباعهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي أظهروا الإيمان بالقرآن المنزل على المؤمنين ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أول النهار ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي واكفروا به آخره، وقولوا لهم: إنا آمنا به بادي الرأي، من غير تأمل فيه، فوقفنا على خللٍ فيه فرجعنا عنه ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي المؤمنون ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الإيمان به، أو يشكُّون فيه، ظناً بأنكم رجعتم لخللٍ ظهر لكم[1]، وهذا نوعٌ آخر من تلبيسات اليهود.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ اتفق المفسرون على أن هذا بقية كلام اليهود، أي وقالوا أيضاً ولا تصدّقوا ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ﴾ وافق ﴿دِينَكُمْ﴾ قال الله تعالى:

---

(١) هذه مكيدة دبَّرها اليهود، ليلبِّسوا على الضعفاء أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا عن الإسلام، ليظن الناس أن في الدين عيباً وخللاً فيرتدّوا عنه!!.

obeikandi.com

﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام، وما عداه ضلال، والجملة اعتراض ﴿أَن﴾ بأن ﴿يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ من الكتاب والحكمة والفضائل، والمعنى لا تقرّوا بأن يؤتى ذلك إلا لمن تبع دينكم ﴿أَوْ﴾ بأن ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾ أي المؤمنون يغلبوكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة، لأنكم أصح ديناً، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فمن أين لكم أنه لا يُؤتى أحد مثل ما أُوتيتم؟ ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ رد وإبطال لما زعموه، أي يجعل رحمته بالنبوة مقصورة على ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وفيه دليل على أن النبوة بالاختصاص لا بالاستحقاق ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقيل الفضل نعم الدين والدنيا ويدخل فيه ما يناسب المقام.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ شروع في بيان خيانتهم في المال، بعد بيان خيانتهم في الدين ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ أي ومن أهل الكتاب من بحيث إن تأمنه ﴿بِقِنطَارٍ﴾ أي مال كثير ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كعبد الله بن سلام، استودعه قرشي ألفاً ومائة أوقية ذهباً، فأداه إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ المراد منه مال قليل ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن عازوراء اليهودي، استودعه رجل ديناراً فجحده وخانه، وقيل: أشد الناس في الخيانة اليهود لأن مذهبهم أنه يحل لهم أخذ مال من خالفهم في الدين، بأي طريق كان ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ استثناء مفرغ أي إلاّ وقت دوامك قائماً على رأسه، مبالغاً في مطالبته، بالتقاضي وإقامة البينة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ أي ذلك الصنيع بسبب

قولهم ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ أي ليس علينا في شأن من لم يكونوا على ديننا، عتابٌ وذم، وقد ادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ بادعائهم ذلك ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم[1].

﴿ بَلَىٰ ﴾ إثباتٌ لما نفوه، أي بلى عليهم فيه إثم، لكنْ ﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ ﴾ الذي عهد إليه في التوراة، من الإيمان بالرسول ﷺ وبالقرآن، وبأداء الأمانات إلى من ائتمنه عليها ﴿ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أي اجتنب الكفر، والخيانة، ونقض العهد ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي يحبهم ويكرمهم، وهذه الآية من الجوامع، لأن الطاعة محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، والوفاء بالعهد مشتملٌ عليهما، والتقوى: هي الاجتناب عن المناهي، وفعل الأوامر الطاعات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ ﴾ يستبدلون ﴿ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ بما عاهدوا الله عليه، من الإيمان، والوفاء بالأمانات ﴿ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ متاع الدنيا من الترؤس، والارتشاء، ونحو ذلك، أخرج البخاري عن ابن أبي أوفىٰ «أن رجلاً أقام سلعة له في

---

(١) رُوي أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: «إنَّا نُصيب في غزونا من أموال أهل الذمة: الدجاجةَ، والشاة، فقال ابن عباس: وماذا تقولون؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأسٌ، قال: هذا كما قال أهل الكتاب ﴿لَيسَ عَلَينَا فِي الأُمِّيينَ سَبيلٌ﴾ إنهم إذا أدَّوا الجزية، لم تحلَّ لكم أموالهم، إلا بطيب أنفسهم» انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٢.

السوق، فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يُعطه، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية[1]»، وأخرج أحمد وابن جرير عن عدي بن عمرة قال: كان بين امرىء القيس، ورجلٍ من حضرموت خصومة، وارتفعا إلى النبي ﷺ فقال للحضرمي: بيّنتك وإلاَّ فيمينه!! قال يا رسول الله: إن حلف ذهب بأرضي، فقال ﷺ: «من حلف على يمين كاذبة، ليقتطع حق أخيه، لقي الله وهو عليه غضبان[2]»، فقال امرؤ القيس: يا رسول الله فما لمن تركها، وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة، قال: فإني أشهدك أني تركتها، فنزلت الآية[3]، وقيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة، وحكم الأمانات، ولا مانع من تعدد سبب النزول ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ لا نصيب ﴿لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من نعيم الجنة، بسبب ذلك الظلم والفجور ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يسرهم كلام أُنس وملاطفة، والظاهر أنه كناية عن غضبه تعالى عليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فإنَّ من سَخِط على غيره، أعرض عنه، وعن التكلم معه، والالتفات نحوه وفي قوله: ﴿يوم القيامة﴾ تهويل للوعيد ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ ولا يطهّرهم من الآثام بالمغفرة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ على ما فعلوه من المعاصي.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ﴾ من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقٗا﴾ لجماعة هم المحرّفون

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة آل عمران ٨/ ٢١٣.

(٢) أخرج طرفاً منه البخاري في كتاب التفسير بلفظ: «من حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرىء مسلم، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان».

(٣) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٣.

ككعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحُيَيّ بن أخطب ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يفتلونها بقراءته، فيميلونها عن المنزَّل إلى المحرَّف أو يعطفونها بشبه الكتاب واللَّيُّ: الفتلُ، لويتُ الحبلَ، فتلتُه، ولوى رأسه أماله، والمراد تحريفهم له، كآية الرجم، وصفة النبي ﷺ[1] ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي المحرَّف ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والحال أنه ليس منه في نفس الأمر من كلام الله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ كذباً ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ وبيانٌ لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والحال أنه ليس من عند الله في اعتقادهم أيضاً ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله، والتعمد فيه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي ما صحَّ، وما استقام لأحد، وإنما قال «لبشر» إشعاراً بعلة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة، إلى الأنبياء عليهم السلام ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآمر بالتوحيد، والناهي عن الشرك ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة التي ينطق بها النبيون ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي الرسالة ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشر، بعدما شرَّفه الله تعالى بما ذُكر، وعرَّفه الحق، وأطلعه على شؤونه العالية ثم يقول: ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

(١) المراد أنهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرَّفة، فهم يصرفون الكلام من جانب الخير إلى جانب الشر، ويتلاعبون في كلام الله عزَّ وجل باللَّيِّ والتحريف.

تكذيبٌ وردٌ على عَبَدة عيسى، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي والسيد النجراني: قالا يا محمد أتريد أن نعبدك، ونتخذك رباً؟ فقال ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فنزلت هذه الآية[1] ﴿وَلَٰكِن﴾ يقول: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي يقول: كونوا ربَّانيِّينَ، والربانيُّ منسوبٌ إلى الربِّ، وهو الكامل في العلم والعمل، والألف والنون للمبالغة، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ الباء للسببية، أي كونوا كذلك بسبب مثابرتكم على تعليمكم الكتاب، ودراستكم له، والغرضُ أن لا ينفك العلم عن العمل، إذ لا يُعتدُّ بأحدهما بدون الآخر.

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾ عطف على ثم يقول: أي وما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى، ثم يأمر الناس ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله، ملائكةً كانوا أو أنبياء، لأن مهمة الرسول الدعوة لعبادة الله وحده ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؟ لا ينبغي له هذا.

> ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (٨٢)﴾.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي اذكر وقت ذلك، ومعنى ميثاق النبيين ما وثقوه على أنفسهم أن يؤمن كل رسول بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره، وإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته، وقيل: إنما أُخذ الميثاقُ من النبيين في أمره ﷺ خاصة، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس

---

(١) أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٥.

قال: لم يبعث الله تعالى نبياً إلاَّ أخذ العهد عليه في محمد ﷺ لئن بعثه الله وهو حي، ليؤمننَّ به ولينصرنه، فيأخذ العهد على قومه[1]، ثم تلا الآية ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أي لتصدقنَّ به ولتنصرنه ﴿قَالَ﴾ الله تعالى بعد أخذ الميثاق للتأكيد ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾ بما ذكر ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ أي أَقبلْتم عهدي، وسمي إصراً لأنه يشدُّ ويعقد ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ﴾ أي فليشهد بعضكم لبعض بالإقرار ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي على إقراركم هذا.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أعرض عما ذُكر من العهد والميثاق ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ التوكيد بالإقرار، ونقض العهد بعد قبوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ المتمرِّدون، الخارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾؟ عطف على الجملة المتقدمة أي أيتولون فيبغون غير دين الله، بعد أخذ هذا الميثاق المؤكد؟ ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ جملة حالية، أي كيف يطلبون غير دينه، والحال وله أسلم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من الملائكة، والإنس، والجان ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ أي طائعين ومُكْرَهين، لا يُقال كيف قيل أسلم، مع أن الأكثر من الإنس والجن كفارٌ؟

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٨٦.

لأن كل من فيهما منقادٌ وخاضع لجلال الله، في تكوينه ووجوده، والطوعُ: الانقيادُ بسهولة، والإكراه ما كان ذلك بمشقة وإباءٍ من النفس ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وفيه وعيد أي فيجازيهم على أعمالهم.

﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن من معه بالإيمان ولذا وحد الضمير في قل وجمع في آمنا ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو القرآن الكريم لما أنه منزل عليهم أيضاً بتوسيطه ﷺ وإنما قدمه على المنزل على سائر الرسل، لأنه المعرف له، والعُمْدةُ عليه ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مقرون له بالألوهية والربوبية، نؤمن بجميع رسل الله، ولا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى، كدأب المشركين، والمدعين للتوحيد مع إشراكهم من أهل الكتاب ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ذلك، بل يردُّ أشدَّ رد ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الواقعين في الخسران، وهو حرمان الثواب، وحصول العقاب، وأصل الخسران ذهاب رأس المال، والمراد به هنا تضييع الأعمال الصالحة، لأن الله لا يقبل عملاً من كافر.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٦) أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)﴾.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ إلى دين الحق ﴿قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ هم جماعة من المنافقين، أبو عامر وأصحابه في اثني عشر رجلاً لحقوا بقريش

فنزلت الآية فيهم، وهو استبعاد لأن يهديهم الله عز وجل، فإن الحائد عن الحق، منهمك في الضلال، بعيد عن الرشاد ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي وقد شهدوا أن الرسول حق لا شك في رسالته ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ أي الشواهد كالقرآن، وسائر المعجزات الدالة على صحة نبوته ﷺ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي﴾ لا يوفق إلى الحق ما داموا مختارين الكفر ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بوضع الكفر موضع الإيمان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ أي جزاؤهم على كفرهم، اللعنةُ من الله والملائكة، وجميع الخلائق، مؤمنهم وكافرهم، وبرِّهم وفاجرهم، فالمراد به العموم، لأن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق، ولكنه لا يعرف الحق.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو النار وإن لم يجر ذكره لدلالة الكلام ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾أي من بعد الارتداد ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ وأصلحوا ما أفسدوا، وقيل: أي أصلحوا باطنهم مع الحق، وظاهرهم مع الخلق، بالعبادات والطاعات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ يقبل توبتهم، ويغفر لعصيانهم، ويتفضل عليهم باللطف والإحسان.

> ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ قال عطاء: نزلت في اليهود، كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً برسول الله ﷺ والقرآن ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا ﴾

ملءُ الشيء مقدار ما يملؤه ﴿ وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ أي فلن يقبل من أحدهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، والكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير، لأنهم لا يملكون شيئاً في الآخرة، وقيل: معناه لو بذله في الدنيا ثم مات على كفره لم ينفعه ذلك ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى من مات على الكفر ﴿ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ مؤلم ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ في دفع العذاب عنهم أو تخفيفه.

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ ﴾ البرُّ: الإحسانُ وكمالُ الخير، أي لن تبلغوا حقيقة البر، الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا الرضى، والجنة ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ وقيل: لن تنالوا ثواب البرّ، حتى تنفقوا من أفضل أموالكم، مما تحبونه وتشتهونه لأنفسكم، وكان السلف إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالى، روي عن نافع أنه قال: كان ابن عمر يشتري الحلوى يتصدق بها، فنقول له: لو اشتريت لهم طعاماً كان أنفع لهم فيقول: أنا أعرف الذي تقولونه، ولكن سمعت الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن ابن عمر يحب السكر والحلوى ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ ﴾ أي من أي شيء كان محبوباً أو غيره ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ فيجازيكم بحسبه، وفيه تحذير من إنفاق الرديء، والترغيب في إنفاق الجيّد المحبوب.

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ ﴾ أي المطعومات ﴿ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي حلالاً لهم، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث قال الله تعالى: ﴿لا هنَّ حِلٌّ لهم﴾ روي أنه حين قال رسول الله ﷺ: أنا على ملة إبراهيم، قالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً له ﷺ وتكذيباً لهم ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾ وكان قد حرم لحوم الإبل وألبانها، وسبب تحريم ذلك، ما روي عن ابن عباس أن يعقوب كان به «عِرْقُ النِّسا» فنذر إن شفاه الله ألاّ يأكل أحب الطعام إليه، فحرمها على نفسه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحم الإبل، وأحبَّ الشراب ألبانُها ﴿ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم، لظلمهم وبغيهم، عقوبة وتشديداً، بقوله تعالى: ﴿فَبِظُلمٍ مِنَ الذينَ هَادُوا حرَّمنا﴾ الآية. ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾ أمر له ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم، الناطق بصحة ما يقول، في أمر التحليل والتحريم ﴿ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أي في دعواكم. روي أنه ﷺ لما قال لهم ذلك؛ لم يجرأوا أن يخرجوا التوراة وبُهتوا، ورجعوا صاغرين.

﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ ﴾ أي اخترع ذلك، بزعمه أن التحريم كان على الأنبياء وأممهم، قبل نزول التوراة، ومعنى الافتراء: الابتداع والاختلاق، والكذبُ إذا كان عن قصد يكون إفكاً، والإفك إذا كان على الغير يكون افتراءً، والافتراء إذا كان بحضرة المقول يكون بهتاناً، وهو الكذب الذي يبهت سامعه أي يدهش له، وهو أفحش الكذب ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي المفترون ﴿ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ لأنفسهم، ولأشياعهم بإضلالهم، وإنما قيّد بالبعدية للدلالة على كمال القبح.

﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ ﴾ أي ثبت صدقه تعالى، في أن كل الطعام كان حلاً

لبني إسرائيل إلاَّ ما حرم إسرائيل ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب، في التوحيد، والاستقامة في الدين، وتعريضٌ بشرك اليهود والنصارى.

> ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله، هو المسجد الحرام الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، رُوي عن ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة فنزلت الآية، والمراد بالأولية بحسب الزمان. أخرج الشيخان عن أبي ذر قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيت وُضع للناس، فقال: «المسجد الحرامُ، ثم بيت المقدس..»[(١)] الحديث. ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي البيت الذي ببكة، وهي لغة في مكة، من بكَّه إذا دقَّه، فإنها تدق أعناق الجبابرة، أو لازدحام الحجيج فيها ﴿مُبَارَكًا﴾ أي كثير الخير والنفع، لمن حجه واعتمره، وطاف حوله ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هادٍ لهم إلى الجنة دار المتقين.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي فيه علامات واضحة كثيرة، تدل على شرفه

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٩٠ ومسلم في المساجد رقم ٥٢٠ ولفظه عن أبي ذرّ قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن أول مسجد وُضع في الأرض؟ قال: المسجدُ الحرام، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً، ثم الأرضُ لك مسجدٌ، فأينما أدركتك الصلاةُ فَصَلِّ».

وفضله على سائر مساجد الأرض ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي منها مقام إبراهيم، ومن الآيات أثر القدم في الصخرة، وإبقاؤه مع كثرة الأعداء ألوف السنين، ومنها زمزم والحطيم، والصفا والمروة ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ هذه آية أخرى، وهي أمن الداخل للحرم بدعوة إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال: «كان الرجل في الجاهلية يقتل الرجل، ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو أبوه، فلا يحركه» وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لو وجدتُ فيه قاتل الخطَّاب ما مسسته حتى يخرج منه» وقال أبو حنيفة: من لزمه القتل في الحل، فالتجأ إلى الحرم، لم يتعرض له، إلا أنه لا يُؤوى، ولا يُطعم ولا يُسقى، حتى يضطر إلى الخروج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي استقرَّ له عليهم فرض الحج، أي قصده وزيارته، فيجب الحج في أول أوقات الإمكان ويكره تأخيره تحريماً، لقوله ﷺ: «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»[1] ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي فُرض الحج على القادر المستطيع له، والقدرة إما بالبدن أو بالمال، أو بهما، ويؤيده ما أخرجه الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال: «لمَّا نزلت هذه الآية، قام رجل فقال يا رسول الله: ما السبيلُ؟ قال: الزادُ والراحلة»[2] ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يراد بـ «مَنْ كَفَر» من لم يحجَّ، تشديداً وتأكيداً لوجوبه، ولقد حازت الآية الكريمة كمال الاعتناء بأمر الحج، حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق، و أبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار، وسُلك فيها مسلك التعميم، ثم التخصيص، والإبهام ثم التبيين، لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير، وعبَّر عن تركه بالكفر وجعل

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ وتتمته «فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها الرجل ثلاثاً، فقال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلت: نعم لوجبتْ، ولَمَا استطعتم».

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الحج رقم ٨١٣ وله طُرُق يقوّي بعضُها بعضاً.

جزاءه استغناءه تعالى، المؤذن بشدة المقت، وعظيم السخط، تنبيهاً على وجوبه وفرضيّته على المؤمنين.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هم اليهود والنصارى، خوطبوا بها مبالغة في تقبيح حالهم، في كفرهم بالقرآن الكريم، لأن معرفتهم بالآيات أقوى ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ السمعية والعقلية الدالة على صدق رسول الله تعالى فيما يدعيه؟ والاستفهام للتوبيخ، والإشارة إلى تعجيزهم عن إقامة العذر في الكفر، كأنه قيل: هاتوا عذركم إن أمكنكم ﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ وإظهار لفظ الجلالة لتربية المهابة ﴿ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي والحال أنه تعالى مطلع على أعمالكم، فيجازيكم عليها.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أُمر ﷺ بتوبيخهم والتكرير للمبالغة ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ ﴾ أي تصرفون، والصدُّ: المنعُ، يقال: صدَدتُه أي منعته وأهلُ الكتاب كانوا يعرضون عن سلوك سبيل الله، ويُضلون الناس عنها ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الطريقة الموصلة إلى الله تعالى، وهي طريقة الإسلام ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ كانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم، ويحتالون لصدِّهم عنه ﴿ تَبْغُونَهَا ﴾ أي السبيل ﴿ عِوَجًا ﴾ أي باغين، طالبين لها اعوجاجاً، بأن توهموا أن فيه عوجاً عن الحق، عِوجاً بكسر العين في الدين[1] ﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ أي عالمون بأنها سبيل الله، والصدُّ عنها ضلال وإضلال ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد لهم، ولمّا كان المنكر في الآية الأولى كفرهم، ختمها بقوله: ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ ولمّا كان في هذه صدُّهم،

---

(١) العِوَجُ: بكسر العين يكون في الدين والطريق، وبالفتح «عَوَج» في الخِلْقة، يقال: في ساقه عَوَجٌ، وفي دينه عِوَج، وانظر الصحاح للجوهري.

قال الله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادِّين فقال عزَّ وجلَّ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ خطاب للأنصار على ما يقتضيه سبب النزول، ويدخل غيرهم من المؤمنين في عموم اللفظ، خاطبهم الله تعالى بنفسه، بعدما أمر رسوله ﷺ بخطاب أهل الكتاب، إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله تعالى، وسبب نزولها ما أخرجه ابن إسحق وجماعة عن زيد بن أسلم قال: «مرَّ شمَّاس بن قيس اليهودي، على جماعة من أصحاب النبي ﷺ، من الأوس والخزرج، في مجلس يتحدثون، فغاظه من ألفتهم، فأمر شاباً معه من اليهود فقال: اجلسْ معهم وذكّرهم يوم بعاث ـ وكان هذا اليوم يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج ـ وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، ففعل فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وغضبوا وقالوا: السلاح، السلاح، فاجتمع من القبيلتين خلقٌ كثير، فوصل الخبر إلى الرسول ﷺ، فجاء فيمن معه من المهاجرين، فقال ﷺ: «يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله إلى الإسلام؟» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد لهم من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا واستغفروا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مطيعين، قد أطفأ الله عدو الله شماس فنزلت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿لعلكم تهتدون﴾[1] قال جابر: ما رأيت

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٩٧ وصفوة التفاسير ١/ ٢١٧.

يوماً أقبح أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم، والمراد من الفريق، بعضٌ غير معين، وتعليق الرد بطاعة فريق منهم، للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية، وقوله تعالى: ﴿يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ فيه تثبيت المؤمنين وإظهار لشناعة الكفرة المجرمين.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام إنكاري وتعجيب من حالهم بعد أن اجتمع لهم من الأسباب الداعية إلى تثبيت الإيمان، الصارفة لهم عن الكفر ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، ونبوة رسوله ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ ﷺ يعلمكم الكتاب، ويزكيكم، بتحقيق الحق وإزالة الشبهة، والمراد استبعاد أن يقع منهم الكفر، وعندهم من الدواعي ما يأباه ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ الاعتصام التمسك أي ومن يتمسك بدينه، أو يلتجىء إليه في جميع أموره، وأصل العصمة الامتناع من الوقوع في آفة، وفيه حث لهم في الالتجاء إلى الله في دفع شر الكفار ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أفاد الكلام تحقق الهدى، حتى كأنه حصل، والتنوين للتفخيم، والصراط المستقيم وإن كان هو الدين الحق، والاهتداء إليه هو الاعتصام به، لكن أُبرز في معرض الجواب، للحث على الاستمساك به والترغيب فيه، أخرج الحكيم الترمذي عن الزهري قال: أوحى الله تعالى إلى داود، ما من عبدٍ يعتصم بي من دون خلقي، وتكيده السموات والأرضُ، إلاّ جعلتُ له من ذلك مخرجاً، وما من عبدٍ يعتصم بمخلوق من دوني، إلاّ قطعت أسباب السماء بين يديه، وأَسَخْتُ الأرض من تحت قدميه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ كرر الخطاب بهذا العنوان تشريفاً لهم ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ حق تقواه، وما يجب منها هو استفراغ الوسع في القيام بالواجب، والاجتناب عن المحارم، كقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه: هو أن يُطاع فلايُعصى ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا ينسى، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون نفوسكم لله تعالى، أي لا تموتون على حال من الأحوال، إلاَّ حال تحقق إسلامكم، وثباتكم عليه، وذكر بعض المحققين، أن الإسلام هنا لا يُراد به الأعمال، بل الإيمان القلبي، لأن الأعمال حال الموت مما لا تكاد تتأدى، ولذا ورد في دعاء صلاة الجنازة «اللهم من أحييتَه منَّا فأحيهِ على الإسلام، ومن توفَّيتَه منَّا فتوفه على الإيمان».

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه، روي ذلك بسند صحيح عن ابن مسعود، لحديث «كتابُ الله هو حبل الله الممدودُ، من السماء إلى الأرض»[1] استعار له الحبل، من حيث إن التمسك به، سبب النجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل، سببٌ للسلامة عن التردي في الهلاك ﴿ جَمِيعًا ﴾ أي مجتمعين عليها ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ ولا تتفرقوا عن الحق، بوقوع الاختلاف بينكم كما كنتم في الجاهلية ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام، المؤدي إلى التآلف، وزوال الشقاق والخلاف ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ أي في الجاهلية ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالإسلام، وقيل: أراد سبحانه ما كان بين الأوس والخزرج، التي تطاولت العداوة بينهما مائة وعشرين سنة ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي وكنتم على

---

(١) هذا طرف من حديث مشهور أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رقم ٢٤٠٩ والترمذي في المناقب.

طرف حفرة من جهنم، إذ لم يكن بينكم وبينها إلا الموت، والشفا: هو الطرفُ في اللغة، أي وكنتم مشرفين على أن تقعوا في نارجهنم لكفركم ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بأن هداكم للإسلام، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القرآن الكريم فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى، وازديادكم فيه.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾
تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أمرهم سبحانه بتكميل الغير، بعدما أمرهم بتكميل النفس، ليكونوا هادين ومهديين، على ضد أعدائهم، الذين هم ضالون مضلون ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنه الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عما استقبحه الشرع والعقل، وقد اتفق العلماء على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من فروض الكفايات، وقد سئل ﷺ مَن خيرُ الناس؟ قال: «آمَرُهم بالمعروفِ، وأنْهاهُم عن المنكر، وأتقاهم لله تعالى، وأوصلُهم للرحم»(١) وقوله: ﴿منكم﴾ للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من عظائم الأمور، التي لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/١٦.

تعالى، ومراتب الاحتساب، وكيفية إقامتها، فإنَّ من لا يعلمها، يوشك أن يأمر بمنكر، وينهى عن معروف، ويُغلظ في مقام اللين، ويلين في مقام الغلظة، وقيل: «مِنْ» بيانية، فالمعنى: كونوا أمة يدعون إلى الخير كقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة﴾ الآية. ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين، لأن الجهاد فرض كفاية بالإجماع، مع ثبوته بالخطابات العامة، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً ـ هو ما ليس فيه رضاء الله، من قول أو فعل، والمعروف ضده ـ فليغيرِّه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ـ معناه فليكرهه بقلبه ـ وذلك أضعف الإيمان»(١) أي أضعف ثمرات الإيمان. وقيل على الأمراء باليد، وعلى العلماء باللسان، وعلى العوام بالقلب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل محبوب، وفي الحديث «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»(٢) بفتحتين يُطلق على جماعة الإبل يعني ثوابه أكثر من ثواب صدقات الإبل النفيسة.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ بالعداوة ﴿وَٱخْتَلَفُواْ﴾ في الديانة، بالتأويلات الزائغة، وكتم آيات الله الناطقة بالرسالة، وتحريفها بحطام الدنيا الدَّنيَّة، كاليهود والنصارى، حيث تفرقوا فرقاً كثيرة، وكفَّر بعضهم بعضاً ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ أي الآيات والحجج المبينة للحق، الموجبة لاتحاد الكلمة، والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول، أصول العقيدة، وأما في الفروع فهو رحمة لما رُوي «اختلاف أمتي رحمة» رواه البزار، وعزاه الزركشي في الأحاديث المشتهرة إلى كتاب الحجة، والحقُّ أن المراد منه اختلاف الصحابة، ومن شاركهم في الاجتهاد، كالمجتهدين المعتدّ بهم من علماء الدين، الذين ليسوا بمبتدعين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد شديد للذين تفرقوا، وفي الحديث الشريف:

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ٤٩.
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب قتال الخوارج رقم ٤٧٥٨.

«مَنْ فارق الجماعة شبراً، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[1].

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ بياض الوجه وسواده، كنايتان عن ظهور بهجة السرور، وكآبة الخوف فيه، وقيل: يوسم أهل الحق، ببياض الوجه والصحيفة، وإشراق البشرة، وسعي النور بين يديه، وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ ابتدأ بحال الفريق الثاني، لِمَا أن المقام مقام التحذير، فيقال لهم: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ الهمزةُ للتوبيخ والمراد بهم جميع الكفار من أهل النار، وقال الحسن: إنهم المنافقون، وقيل: إنهم أهل البدع والأهواء ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ الشديد الموصوف بالعظيم، والأمر للإهانة ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كفركم وصيغة المستقبل للدلالة على استمرار كفرهم، روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يرد عليَّ يوم القيامة رهطٌ من أمتي، فيُجْلون عن الحوض ـ أي يطردون ـ فأقول: يا رب أصحابي!! فيقول: إنه لا علم لكَ بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم»[2].

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ أي في الجنة، عبَّر عن ذلك بالجنة، تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى، لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، كما ورد في الحديث الشريف «لن يُدخل أحدَكُم عملُه الجنَّةَ، قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله!! قال: ولا أنا، إلاَّ أن يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ منهُ وفَضْل»[3]. ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا يظعنون عنها ولا يموتون.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، البخاري في الفتن ١٣/ ٥ بلفظ: «من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتةً جاهلية» ومسلم رقم ١٨٤٩ في الإمارة بنحوه.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٤١٣ ومسلم في الطهارة رقم ٢٤٧ وفي رواية في الصحيحين بعده: فأقول «سُحْقاً سُحقاً لمن بدَّل بعدي» انظر جامع الأصول ١٠/ ٤٦٩.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٥٢ ومسلم رقم ٢٨١٦ في المنافقين.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردة في الوعد والوعيد ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ شيئاً فشيئاً وإسناد التلاوة إليه تعالى مما لا يخفى من العناية بالتلاوة والمتلو عليه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ يستحيل الظلم منه، لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق وفيه تعريض بأن الكافرين هم الظالمون، كما في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون﴾ ونفي الشيء لا يقتضي إمكانه، فقد يُنفى المستحيلُ، كما في قوله تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التعبير بما للتغليب، أي له ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي أمورهم، فيجازي كلاً بعمله.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كان ههنا تامة بمعنى الوقوع والحدوث، والمعنى: خلقتم خير أمة، وهذا قول جمع من المفسرين، وإن كانت ناقصة فالمعنى: كنتم في علم الله، أو صرتم خير أمة ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أظهرت لهم، والخطابُ قيل لأصحاب النبي خاصة، وقيل: إنه عام وهو الصحيح ويؤيده ما أخرجه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «أعطيتُ ما لم يُعط أحد من الأنبياء، نصرُت بالرعب، وأعطيتُ مفاتيح الأرض، وسميت بأحمد، وجُعل الترابُ لي طهوراً، وجُعلتْ أمتي خيرَ الأمم»(١) وقال عمر رضي الله عنه «يا أيها الناسُ من سرَّه أن يكون من تلك الأمة، فليؤدّ الشرط» وأشار بذلك، إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو كلام مستأنف، مبين لكونهم خير أمة، وقوله تعالى: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي عن الكفر، وكل محظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وتدومون على الإيمان به تعالى، وهو يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، فلو أخلَّ بشيء منه لم يكن مؤمناً، وإنما أخَّر الإيمان مع تقدمه وجوداً ورتبةً للاهتمام به، لأنه من وظيفة الأنبياء ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إيماناً صادقاً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ مما هم فيه من الكفر، وليس ﴿خيراً﴾ هنا أفعل تفضيل، بل هو لبيان أن الإيمان فاضل، كما في قوله تعالى: ﴿أفمن يُلقى في النَّار خيرٌ﴾؟ ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قيل: الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وهؤلاء مع كفرهم فاسقون متمردون، خارجون عن طاعة الله.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ أي ضرراً يسيراً، كطعنٍ وتهديد أي لن يضروكم ضرراً ما إلا أذىً باللسان أو الطعن ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء، وتولية الأدبار كناية عن انهزامهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لا أحد ينصرهم عليكم، أو يدفع بأسكم عنهم، وفي هذه الآية، دلالة واضحة على نبوة نبينا ﷺ، لكونها من الإخبار بالغيب، الذي وافقه الواقع، لأن يهود بني قينقاع، وبني قريظة، حاربوا المسلمين ولم يثبتوا، ولم ينالوا شيئاً منهم، ولم يتحقق لهم بعد ذلك راية.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٦٤ وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «خيرَ الناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام» يريد تنقذونهم من النار.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أُلزمت على اليهود الذلة، وقد أذلهم الله ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ حيثما وُجدوا وصُودفوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بدين الإسلام ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي بعهد الذمة ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رجعوا به مستوجبين للغضب ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم، إحاطة البيت المضروب على أهله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ظلماً وطغياناً، والتقييد ﴿بغير حق﴾ للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى.

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا
يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ
فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ
وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ الضمير لأهل الكتاب جميعاً، سِيقَتْ لتعداد محاسن مؤمني أهل الكتاب ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ مستقيمة على طاعة الله، ثابتة على أمره، والقائمةُ: المستقيمة العادلة، من أقمتُ العودَ فقامَ بمعنى استقام ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ساعاته، واحدته إِنى بوزن مِعَى ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يصلون، عبَّر عن تهجُّدهم بتلاوة القرآن، لأن التلاوة أهم الأركان في صلاة القيام، حيث تطول الصلاة لطول

القراءة، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسجُدُونَ﴾ أي في حال صلاتهم وقيامهم وسجودهم.

﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ صفة أخرى للأمة أي يؤمنون بها على الوجه الذي نطق به الشرع ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تحقيقاً لمخالفتهم لليهود، لأنهم مع ضلالهم، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويصدون الناس عن سبيل الله ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن، وأحسن المسارعة المبادرة بالرغبة والاختيار، لأن من رغب في الأمر سارع فيه، وصيغة المفاعلة للمبالغة، ولم يعبر عنها بالعجلة، لأن العجلة التقدم فيما لا ينبغي، وهي مذمومة، والمسارعة مقبولة، وضد العجلة الأناة، وضد المسارعة الإبطاء، وهو مذموم، لقواه تعالى: ﴿وإنَّ منكم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾.

وصفهم الله بخصائص، ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، مداهنون في الاحتساب، متباطئون في الخيرات ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالأوصاف الجميلة ﴿ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من عداد الذين صلحت عند الله حالهم، وهذا ردٌّ لقول اليهود: ما آمَن به إلاَّ شرارنا.

﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ كائناً ما كان ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يحرموا جزاءه البتة ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم، وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير، وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو «أهلُ التقوى».

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المراد به عموم الكفار، لأنهم كانوا يتعززون بكثرة الأموال والأولاد حيث قالوا ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ وكانوا يعيّرون الرسول ﷺ وأتباعه بالفقر ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذاب الله ﴿شَيْـًٔا﴾ يسيراً، والمراد من الإغناء الدفعُ، وإنما خصَّ الأموال والأولاد بالذكر، لأن الإنسان يدفع العذاب عن نفسه تارة بالفداء

بالمال، وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون مخلدون في عذاب جهنم.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرة مفاخرةً وسُمعة، ورياء وعُجباً، بقصد الثناء، والإشارةُ للتحقير ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي في هذه الدنيا الزائلة ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي بردٍ شديد ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ﴾ زرع ﴿قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ عقوبة على كفرهم، والمراد من التشبيه، الإشارة إلى عدم الفائدة، في الدنيا والآخرة، لأنه إن كان إنفاقهم في عداوة الإسلام، لم ينتفعوا بها، لأنه انقلب الأمر عليهم، وإن كان لمنافع الآخرة، فإن الكفر مانع من الانتفاع بها، فثبت أن جميع نفقات الكفار وصدقاتهم، لا فائدة لهم بها في الدارين ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الله عزَّ وجلَّ والضميرُ للمنفقين أي ما ظلمهم بضياع نفقاتهم، وإهلاك الحرث ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي ولكنهم ظلموا أنفسهم، بارتكاب ما استحقوا به العقوبة الشديدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان رجال من المسلمين، يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار، والقرابةِ، والصداقة، والحلف في الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، وقال مجاهد: نزلت في قوم

من المؤمنين، كانوا يوالون رجالاً من المنافقين، فنهوا عن ذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا﴾ الخ وهي صفة المنافقين ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يُعرِّفه الرجل أحواله، ويُطلعه على أسراره، ثقةً به، مأخوذ من بطانة الثوب، لأنه يلي البدن[1] ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي كائنة من غير المسلمين، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصِّرون لكم في الفساد، وأصل الخبال: الفسادُ الذي يلحق الإنسان، فيورثه اضطراباً كالمرض والجنون، ويُستعمل في الشر والفساد مطلقاً، فالمعنى: أنهم يفعلون معكم ما يقدرون عليه من الفساد ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنَّوْا عَنَتَكم، وهو شدة الضرر والمشقة أي تمنوا شدَّةَ ضرركم، في دينكم ودنياكم، لفرط بغضهم لكم ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ﴾ البغضاء أشد البغض، كالضُرّ مع الضراء ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ظهرت أمارات البغض والعداوة من فلتات ألسنتهم، لأنهم لشدة بغضهم لكم، لا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي وما يبطنونه من البغض لكم، أكبر مما يظهرونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين، ومعاداة الكافرين والمنافقين، أو قد أظهرنا لكم الآيات الدالة التي يتميز بها الولي من العدو ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مابيِّن لكم، أي إن كنتم عقلاء، فلا تتخذوهم أولياء.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ﴾ أي أنتم أولاء خاطئون في موالاة اليهود والمنافقين ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من القرابة أو الصداقة ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بسبب كونكم مسلمين ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطِلهم، أصلب منكم في حقكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ نفاقاً وتغريراً

---

(١) البطانة يراد بها خواصُّ الرجل، وأصدقاؤه الذين يبوح لهم بسرّه، مأخوذ من بطانة الثوب، تشبيهاً لذلك الصاحب والصّديق بالبطانة التي تكون داخل الثوب، وهي استعارة لطيفة.

﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ تحسراً وتأسفاً، حيث لم يجدوا إلى التشفي سبيلاً[(١)] ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم، حتى يهلكوا به، والمراد به ما يغيظهم من قوة الإسلام وعِزّ أهله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي يعلم ما في قلوبهم من البغضاء والحسد، والمراد ﴿بذات الصدور﴾: الخواطرُ القائمة بالقلب.

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ ﴾ بيانٌ لتناهي عداوتهم إلى حدّ الحسد، أي ما ينالكم من خير وظفر، ومنفعة ورخاء ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ أي يحزنهم ويغيظهم ذلك ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ من شدة وجدب، وبلاءٍ وهزيمة ﴿ يَفْرَحُوا ﴾ يبتهجوا ويشمتوا ﴿ بِهَا ﴾ بإصابتها، فهم لا ترجى موالاتهم أصلاً، فكيف تتخذونهم بطانة؟ ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا ﴾ على عداوتهم وعلى مشاق التكاليف ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ الله فتكفُّوا عن موالاتهم، وسائر ما حرَّم الله تعالى عليكم ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ ﴾ مكرهم وحيلتهم التي دبروها لأجلكم ﴿ شَيْئًا ﴾ أي شيئاً من الضرر، وهذا تعليمٌ من الله تعالى، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو، بالصبر والتقوى، يقال: كادَهُ كيداً، خَدَعه ومكَرَ به، وهو أن يحتال الإنسان ليوقع غيره في مكروه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصبر والتقوى ﴿ مُحِيطٌ ﴾ علماً فيجازيكم بما أنتم أهله، ويجازيهم على نفاقهم وإجرامهم.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

---

(١) عضُّ الأنامل عادةُ العاجز النادم، الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً، أمام ما عرض له من مصاعب ومتاعب، فيعض على أصابعه تحسراً وأسىً، وهذا من مجاز الأمثال.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ أي اذكر للمؤمنين وقت غدوك، ليتذكروا ما وقع فيه، من عدم الصبر والتقوى، فيعلموا أنهم إن لزموا الصبر والتقوى، لا يضرهم كيد الكفرة، والمراد به خروجه ﷺ إلى أحد، وكان ذلك من منزل عائشة رضي الله عنها ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي من عند أهلك ﴿ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تنزلهم وتهيِّىء لهم ﴿ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ مواقف وأماكن للقتال ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لأقوالكم، وعليم بنياتكم، وفيه إيذانٌ بأنه قد صدر عنهم من الأقوال والأفعال، ما لا ينبغي صدوره.

روي أنه اجتمع كفار قريش لحرب رسول الله ﷺ، ومن تابعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان، فلما سمع ﷺ خروجهم استشار أصحابه، فقال أكثر الأنصار يا رسول الله اخرج بنا إليهم، لئلا يعيِّرونا أنا جَبُنَّا عنهم، فلم يزل الناس به حتى دخل ولبس لأمَتَه - لباس الحرب - فخرج بألفٍ، فلما قاربوا عسكر الكفرة، انخذل «عبد الله» بن أبي بثلث الناس ومضى ﷺ حتى نزل الشِعْبَ من أُحد، فجعل ظهر عسكره إلى أحد، وتَعَبأ للقتال، وأمَّر على الرماةِ «عبد الله بن جبير» وكانوا خمسين رجلاً، وقال لهم: ادفعوا عنا بالنَّبْل، لا يأتونا من خلفنا، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ووقع القتال، فأعانهم الله تعالى حتى هزموا الكفار، فلما رأى الرماة انهزام الكفار طمعوا وخالفوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا مواقعهم، فنزع الله الرعب من قلوب المشركين، فكرُّوا عليهم وكان ما كان.

﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، همُّوا بعد انخزال ابن سلول بالرجوع، فعصمهم الله تعالى، فمضوا مع رسول الله ﷺ، والظاهر أنه ما كانت عزيمة، لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ أي عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على أحدٍ غيره.

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل، وبدرٌ ماء

بين مكة والمدينة، كان لرجل يسمى بدراً فسمي به، وكانت وقعة بدر في يوم الجمعة، في السابع عشر من رمضان، في الثانية من الهجرة ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ المراد بالذلة هو ضعف الحال، بقلة العَدَد، والعُدَد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسول الله ﷺ، والصبر على طاعاته، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون ربكم على ما أنعم الله به عليكم من النصر.

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لِنَصَرَكم، أي إذْ نصركم في وقت قولك ﴿للمؤمنين﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة، قال الشعبي: بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذٍ ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ إنكار أن لا يكفيهم ذلك، إشعارٌ بأنهم كانوا كاليائسين من النصر، لضعفهم وقلتهم، وقوة العدوّ وكثرتهم ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ وفي التعبير بعنوان الربوبية لإظهار العناية بهم، والإشعار بعلة الإمداد ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ للنصرة.

﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعدها أي بلى يكفيكم، ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى، حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم، فقال: ﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي إن تصبروا على القتال، وما أمرتم به، وتتقوا ربكم في ما حذَّركم منه من مخالفة رسوله ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي من

ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدر فارت القِدرُ، إذا غَلَت، ومنه: «إن شدة الحر من فور جهنم» يطلق على الغضب، ثم إنه استعير للسرعة، وَوُصف بهذا إيذاناً بتحقق سرعة الإمداد ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ في حال إتيانهم ولا يتأخرون عن إتيانهم ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ من التسويم وهو إظهار علامة الشيء، والمراد معلِّمين أنفسهم أو خيلهم، عن ابن عباس قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر، عمائم بيض، قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمر، واختلف المفسرون في إمدادهم فقال ابن جرير: وعدهم بثلاثة آلاف، ثم وعدهم بخمسة آلاف في غزوة أحد، ولكن لم يقع ذلك، لعدم وقوع الشرط بالأمور الثلاثة: وهي الصبر، والتقوى، وإتيان أصحاب الكفر، وقد ثبت بالنص أنهم أُمدّوا يوم بدر بألف، كما في سورة الأنفال، وأما يوم «أحد» فالدلالة على أنهم لم يُمدوا، لأنهم لو أمدّوا لم ينهزموا، وإنما قدَّم لهم الوعد بنزول الملائكة، لتقوية قلوبهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي الإمداد لبيان أن الأسباب الظاهرة، بمعزلٍ من التأثير، وأن حقيقة النصر مختص به عزَّ وجل، ليثق به المؤمنون، ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي ما جعل الله إمدادكم لشيء من الأشياء، إلا للبشرى لكم، بأنكم تنصرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي بالإمداد، وفي الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا يومئذ القتال، وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المؤمنين، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بتمكين الله تعالى لهم من رقاب الأعداء، على أن مجرد القتال، لا يستدعي النصر، بل لا بد من انضمام ضعف المقاتلين وأمور أخرى، وما النصر المعهود إلا من عنده تعالى، لا من عند الملائكة ولا غيرهم ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يُغالب فيما قضى به ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يفعل على ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾،

والمعنى لقد نصركم الله يومئذ ليقطع أي يهلك وينقص ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي طائفة منهم، بقتل وأسر، وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم سبعون، وأسر سبعون ﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ أي يخزيهم والكبتُ: شدةُ الغيظ، أو وهن يقع في القلب، وقيل: الكبتُ الإصابة بمكروه ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ غير فائزين، والخيبةُ الحرمانُ بعد الأمل، واليأس يكون قبله وبعده، ونقيض الخيبة الظفر، ونقيضُ اليأس الرجاءُ.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ لمّا شُجَّ وجهُ الرسول ﷺ كان يقول: كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم؟ فأنزل الله هذه الآية[1]، وعن ابن عمر قال: قال ﷺ يوم أحد: «اللهم العن أبا سفيان، والعن الحارث بن هشام»، فنزلت هذه الآية والمعنى: ليس لك من أمر هؤلاء شيء، يعني لا تقدر أن تجبرهم على الإيمان، ولا على التوبة، ولا تمنعهم عنها، ولا تقدر أن تعذبهم، فإن الأمور كلها بيد الله ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾ عطف على قوله: ﴿أو يكبتهم﴾ والمعنى: إن الله مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي جزاءً لظلمهم قد استحقوا التعذيب.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خلقاً، وملكاً، فله الأمر كله لا مدخل لأحد في ذلك، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مشيئةً مبنيةً على الحِكَم، والمصالح ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ أن يعذبه عدلاً منه، وتقديم المغفرة للإيذان بسبق رحمته تعالى على غضبه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ

(١) هذه الآية في قصة أحد، وقد وردت اعتراضاً في ثنايا الحديث عن غزوة بدر، وذلك لمّا كُسرت رباعيته ﷺ، وشُجَّ وجهُه الشريف، قال صلوات الله عليه: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدّم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فنزلت: ﴿ليس لك من الأمر شيء...﴾ الآية، وانظر صفوة التفاسير.

رَّحِيمٌ﴾ لعباده المتقين، وتخصيصه بالذكر ﴿غفور رحيم﴾ إشارة إلى ترجيح جهة الإحسان، نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ويرحمنا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خاطبهم بوصف الإيمان، لأنهم أهل للاستفادة من الخطاب، وتذكيراً لهم بما هو أصلح وأنفع في أمر الدنيا والدين ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ المراد من الأكل الأخذ ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ ضعف الشيء: مثله، وليست هذه الحال لتقييد المنهي عنه، بل لمراعاة الواقع، فقد روي أنه كان الرجل يُربي إلى أجل، فإذا حلَّ قال للمديون: زدني في المال، حتى أزيدك بالأجل، فيفعل عند كل أجل هكذا، فيستغرق الشيء الطفيفُ ماله بالكلية، فنهوا عن ذلك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نهيتم عنه من الربا ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ راجين للفلاح، واقتران الرجا بالتقوى، يفيدان أن يكون العبد بين الخوف والرجا، فهما جناحان يطير العبد بهما إلى منازل القدس، ومعارج الفضل والكمال.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ أي احترزوا من أكل الربا ونحوه، من المعاصي

المفضية إلى دخول النار ﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ﴾ هُيِّئت ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهي غير النار التي يدخلها عصاة المؤمنين، وفيها إشارة إلى أن أكلة الربا على شفا حفرة الكفر وفيها تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار، وبالعَرَض للعصاة، وقال أبو حنيفة رحمه الله: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين، بالنار المعدة للكافرين.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أطيعوا أمرهما راجين لرحمة الله تعالى في جميع أحوالكم، وإيراد لعل في الآيتين للإشعار بعزة منال الفلاح والرحمة.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ﴾ بادروا وأقبلوا عطف على أطيعوا ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة، كالإسلام، والتوبة، والإخلاص، وقيل: إلى الهجرة، والجهاد، والظاهر العموم لأن اللفظ عام ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة، والعرب كثيراً ما تصف الشيء بالعرض، إذا أرادوا المبالغة، فليس المقصود تحديد عرضها بل هو كناية عن السعة، بما هو واردٌ على تصور السامعين ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وإنما أضيفت إليهم، لأنهم المقصودون بالذات.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، ومفعول ﴿ينفقون﴾ محذوف، ليتناول كل ما يصلح للإنفاق ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أي في جميع الأحوال، إذ الإنسان لا يخلو عن مسرَّة أو مضرَّة، والمعنى: لا يخلون عن إنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير، وفي الحديث الشريف: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»، وافتتح بذكر الإنفاق، لأنه أشقُّ شيء على النفس، وأدلُّه على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال، للحاجة إليه في مجاهدة العدوّ، ومواساة المسلمين ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ الممسكين عليه، الكافين عن إمضائه مع القدرة

والغيظُ: هيجان الطبع عند رؤية ما يكرهه أو ينكره[1] ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس، ويدخل تحته هؤلاء، أو العهد فتكون للكاظمين للغيظ، والإحسان إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضر عنه، فالأول هو المراد بقوله تعالى: ﴿الذين ينفقون﴾ ويدخل فيه إنفاق العلم، والمال، وأما دفع الضرر فهو إما في الدنيا فهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه، دالة على جميع جهات الإحسان، ولما كانت هذه الخصال إحساناً ومن فعلها فهو محسن، ذكر الله تعالى ثوابه بقوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ فهو أعظم درجات الثواب.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾فعلةً بالغةً في القبح، كالزنى، والقتل، والتعري عن الثياب ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أتوا ذنباً أيَّ ذنبٍ كان، وقيل: الفاحشةُ الكبيرة، وظلمُ النفس الصغيرة ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تذكَّروا وعيده وحقّه العظيم ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالتوبة والندم، وإلاَّ فطلب المغفرة مع الإصرار كالاستهزاء، قالت رابعة العدوية: استغفارنا هذا يحتاج إلى الاستغفار ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا رب العزة والجلال، والمراد وصفه تعالى بسعة الرحمة، والحث على الاستغفار، والوعد بقبول التوبة، والإشعار بأن الذنوب وإن جلَّت، فإن عفوه تعالى أجلُّ أي هل تعرفون أحداً يقدر على غفر الذنوب، غير من وسعت رحمتُه كلَّ شيء ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ ولم يقيموا على

(١) روى البيهقي أن جارية لعلي بن الحسين ـ من آل البيت ـ جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجَّه، فرفع رأسه إليها وهو مغضب، فقالت: إن الله تعالى يقول: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ فقال لها: قد كظمتُ غيظي، قالت: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: قد عفوتُ عنكِ، قالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾ قال: اذهبي فأنتِ حرةٌ لوجه الله تعالى.

ذنوبهم غير مستغفرين والإصرارُ: المداومة في المعصية، ولا يقال في الخير أصرَّ أي ولم يصروا على ما فعلوه من الذنوب[1] ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون قبح فعلهم، والوعيد عليه، والتقييد بذلك، لما أنه قد يُعذر من لا يعلم الأمر، إذا لم يكن عن تقصير في تحصيله.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المذكورون بالصفات الحميدة ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ستر لذنوبهم كائنة من جهته تعالى لتوبتهم ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ عرضها السماوات والأرض ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ المغفرةُ، والجناتُ، والتعبيرُ ههنا بالأجر، مشعرٌ بأنه مستحق بمقابلة العمل، لمزيد الرغبة في الطاعة، والزجر عن المعاصي، وفي هذه الآيات دلالة على أن المؤمنين ثلاث طبقات: «المتقين، التائبين، والمصرّين» والمغفرة تكون للصنفين الأولين دون المصرّين.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

---

(١) في الحديث الشريف: «ما من عبدٍ مؤمنٍ يذنب ذنباً، فيقوم ويتطهر، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلاّ غفر الله له، ثم قرأ ﷺ: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله...﴾» الآية أخرجه أبو داود والترمذي.

﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ مضت رجوع إلى تفصيل بقية القصة ﴿ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي وقائع سنَّها الله في الأمم المكذبة، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأقدامكم، والخطاب للمؤمنين ﴿ فَانظُرُوا ﴾ تأملوا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي آخر أمرهم، الذي أدى إليه تكذيبهم لأنبيائهم، واعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم، فالعاقل من اعتبر بغيره.

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي هذا إيضاح لسوء عاقبة المكذبين، يهتدي ويتعظ به المتقون، والمراد أنه هدى وبيان لجميع الناس، لكن المنتفع به المتقون، لأنهم يهتدون به.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ تشجيع للمؤمنين، وتقوية لقلوبهم، وتسلية عما أصابهم يوم أحد من القتل، والجراحات والوهنُ: الضعفُ أي ولا تضعفوا عن الجهاد في سبيل الله عما نالكم، ولا تحزنوا على من قتل ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي والحال أنكم الأعلون الغالبون فإنكم على الحق، وقتالكم لله سبحانه، وقتلاكم في الجنة، وإنهم على الباطل، وقتالهم للشيطان، وقتلاهم في النار، وهو تصريح بالوعد والغلبة، وحكى القرطبي أنهم لم يخرجوا بعد ذلك للغزو، إلاَّ ظفروا في كل غزوة في عهده ﷺ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالنهي، أي لا تهنوا إن رسخ إيمانكم، وإن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون.

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ القَرْحُ: بالفتح والضم الجِراحُ ﴿ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ يوم بدر ويوم أحد، فإن المسلمين نالوا منهم، وانتصروا عليهم، قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ نصرّفها ﴿ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ والأيام يراد بها الأوقات، لا الأيام العرفية، وهي أيام الظفر الجارية فيما بين الأمم، والمداولةُ نقل الشيء من واحد إلى آخر، ومن كلامهم: «الأيام دُوَل»، أي تنقل من أمة إلى أمة والمعنى: لا يدوم مَسَارُّها، ولا مضارُّها، فيوم علينا، ويوم لنا، وفيه تسلية للمؤمنين ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عطف على علة محذوفة، كأنه قيل: نداولها

بين الناس، لتكون حِكَماً وفوائد، وليعلم، والكلام من باب التمثيل، أي يعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين، الثابتين على الإيمان من غيرهم، والعلم فيه مجاز عن التمييز، أي ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنينَ عَلى ما أنتم عَلَيْهِ حَتَّى يميزَ الخَبِيثَ من الطَيِّب﴾ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد أي يكرم أناساً منكم بالشهادة، وهم شهداء أحد، رُوي عن عكرمة أنه قال: لمَّا أبطأ على النساء الخبرُ، خرجن يستخبرن، فإذا رجلان مقتولان على دابة، فقالت امرأة من الأنصار: من هذان؟ قالوا: زوجك وابنك!! فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، ثم قالت يتخذ الله من عباده شهداء، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة، وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم، وابتلاءً للمؤمنين، ولو كان النصر دائماً للمؤمنين، لكان الناس يدخلون في الإيمان، لأنهم يعرفون أنه الحق وقيل: المراد بالظالمين المنافقين، كابن أُبيّ ابن سلول، ومن تبعه، الذين فارقوا جيش الإسلام، ورجعوا ولم يقاتلوا.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب، إن كانت الدولة عليهم، وأصل التمحيص: تخليص من كل عيب، يقال: محصت الذهب إذا أزلت خبثه ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، ومعنى الآية: إنْ قَتَلكم الكافرون فهو شهادة، وتطهير لكم، وإن قتلتموهم أنتم، فهو استئصال لهم وشفاء لصدوركم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم، ومعناه الإنكار، والخطاب للذين انهزموا يوم أحد ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي والحال أنه لم يتبيَّن المجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون على ما ينالهم في ذات الله؟ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين يتحملون أقسى الشدائد نصرة لدين الله، والمراد من الآية أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر، أي الجمع بينهما.

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ ﴾ خطاب لطائفة من المؤمنين، لم يشهدوا غزوة بدر، فالمراد بالموت، الموت في سبيل الله، وهي الشهادة، ولا بأس بتمنيها، ولا يرد أنَّ في تمني الموت غلبة الكفار، لأن قصد المتمني الوصول إلى كرامة الشهداء لا غير، وكان المتمنون ألحُّوا على الرسول ﷺ في الخروج إلى غزوة أحد، ثم ظهر خلاف ذلك منهم ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شِدَّته ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي. فقد رأيتموه معاينين له، حين قُتل من قُتِل من إخوانكم، وهو عتاب في حق من انهزم، وتوبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب، وتسبَّبوا لها، ثم جبُنوا وانهزموا عنها.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ محمد اسم علم لنبينا ﷺ سمَّاه به جده عبد المطلب لرؤية رآها، قال: رجوت أن يحمد في السماء والأرض، وقد كان المشركون يسمونه «مذمَّماً» لأنه عاب دينهم، وحقَّر أصنامهم، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول: ألم تروا كيف صرف الله

لعن قريش، وشتمهم لي، يشتمون مذمَّماً وأنا محمد!! روي أنه لمَّا رمى ابن قمئة رسول الله ﷺ بحجر، فكسر رباعيته، وشجَّ وجهه، وذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وقتله ابن قمئة، وهو يرى أنه قتل النبي ﷺ فقال عدوُّ الله: قد قتلتُ محمداً، وصرخ صارخ ألاَ إن محمداً قد قُتل، فجعل الرسول ﷺ يدعو المؤمنين: إليَّ يا عبادَ الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه، وحموه، حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرق الباقون وقال بعضهم ليت ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قُتل، فارجعوا إلى إخوانكم ودينكم، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإنَّ رب محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله، فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل، فنزلت الآية أي وما محمد إلا رسول، قد مضت من قبله الرسل، والرسل منهم من مات ومنهم من قتل، فعليكم أن تتمسكوا بدينه، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، لأن المقصود من بعثة الرسل، تبليغ الرسالة، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾؟ إنكار لارتدادهم عن الدين، بخلّوه ﷺ بموتٍ أو قتل، وليس المراد ارتدادهم حقيقة، وإنما هو تغليظ عليهم، فيما كان منهم من الفرار، فما ارتد أحد يومئذ من المسلمين، إلا من كان من المنافقين ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ مجاز عن الارتداد، وهو في الأصل الرجوع القهقرى ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ من الضر، وإنما يضر نفسه، بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ المراد بالشاكرين: الثابتين الطائعين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إلا بمشيئة الله تعالى والمعنى: إن لكل نفسٍ أجلاً مسمًّى في علمه تعالى، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، بالإحجام عن القتال، أو الإقدام عليه، وفيه تحريضٌ وتشجيعٌ على القتال لإعلاء كلمة الله ﴿كِتَٰبًا﴾ أي كتب الله تعالى كتاباً ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ موقّتاً بوقتٍ معلوم، لا يتقدم ولا يتأخر، وظاهر الآية يؤيد

مذهب أهل السنة، القائلين بأن المقتول ميتٌ بأجله ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم، وأخذوا يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك، أقبلوا على الغنائم وخلوا مكانهم، فانتهز المشركون ذلك، وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم، والمعنى: من أراد بعمله ثواب الدنيا، نؤته منها ما نشاء أن نؤتيه إياه، كما في قوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ إعلاء كلمة الله ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ من ثوابها، حسبما جرى به الوعد الكريم، والآية وإن نزلت في الجهاد، لكنَّ حكمها أنها عامة في جميع الأعمال الحسنة ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ المراد إمَّا المجاهدون من الشهداء وغيرهم، وإما جنس الشاكر، وهم داخلون فيها دخولاً أوّلياً، وتصدير الجملة بالسين وإبهام الجزاء، من التأكيد، والدلالة على فخامة الجزاء ما لا يخفى.

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلام ناعٍ عليهم سوء صنيعهم، حيث لم يستنُّوا بسنن الربانيين، المجاهدين بنبيهم، مع أنهم أولى بذلك منهم، حيث كانوا خير أمة أُخرجت للناس «كأين» فيها معنى التكثير بمعنى كم ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ المراد من النبي هنا الرسول ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي كثير من الأنبياء، قاتل معه جموع كثيرة، والربيُّ المنسوب إلى الرب، أي قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، العلماءُ والعابدون أو أتباع كثيرة ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ الوهنُ: العجز والضعف أي فما عجزوا وما جبنوا، ولم تضعف همتهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ من القتل والجراح ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أثناء القتال، فإن كون ذلك في سبيله عزَّ وجل، ممّا يقوّي قلوبهم، ويزيل وهنهم ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ عن الجهاد أمام الأعداء ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي ما خضعوا لعدوهم وأصله من السكون، لأن الخاضع يسكن لصاحبه، ليفعل به ما يريده ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فينالهم الضرر ليعظم قدرهم، وهم الذين يصبرون على مقاساة الشدائد في سبيل الله.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ أي قول المجاهدين الفعلية ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ أي ما

كان قولهم عند الشدائد والآلام، إلا أن قالوا ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي صغائرنا ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ أي تجاوزنا عن الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم، مع كونهم ربانيين، هضماً لأنفسهم ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن الحرب، بتقوية قلوبنا أو وثبِّتْ أقدامنا على دينك الحق ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي على الكفار، وقولُهم هذا، كالتتميم لبيان صلابتهم في الدين **والمقصود من الآية الكريمة** حكايةُ ما جرى لسائر الأنبياء وأتباعهم، لتقتدي هذه الأمة بهم، وفيه من التعريض بالمنهزمين، وكيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بسبب ثباتهم ودعائهم ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ النصرة والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي وثواب الآخرة الحسن، وهو الجنة، والنعيم المخلد فيها ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب أهل الفضل والإحسان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به، وقيل المراد بهم أهل الكتاب حيث كانوا يقولون: لو كان نبياً لما غُلب، وإنما هو رجل حاله كحال غيره، يومٌ له ويومٌ عليه، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ أي يرجعونكم إلى أول أمركم، وهو الشرك ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ أي غير فائزين بشيء من الدنيا والآخرة، وذلك أعظم الخسران.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية، كأنه قيل: فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم، بل الله ناصركم ومولاكم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة، لأنه القوي القادر الذي لا يُغلب، والناصر في الحقيقة لأوليائه وأحبابه المتقين.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ السين لتأكيد الإلقاء، والرعبُ: الخوفُ والفزع، والمراد من الموصول أبو سفيان وأصحابه من كفار قريش، وفي الحديث: «نصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر»[1] يعني نصرني الله بإلقاء الخوف في قلوب أعدائي، من مسيرة شهرٍ بيني وبينهم، يريد ماقذف الله في قلوبهم من الخوف، يوم أحد، حتى تركوا القتال ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي بسبب إشراكهم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي بإشراكه ﴿سُلْطَـٰنًا﴾ أي حجة، سُميت به لوضوحها وإنارتها ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مسكنهم الذي يأوون إليه في الآخرة النار لا مأوى لهم غيرها ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي بئست جهنم مسكناً ومأوى للظالمين، وإنما وضع الظاهر للتغليظ، والإشعار بأنهم في إشراكهم ظالمون، وفي جعلها مثواهم، بعد جعلها مأواهم، نوع رمز إلى خلودهم فيها، فإن المثوى مكان الإقامة الدائمة.

---

(١) طرف من حديث شريف رواه البخاري ١/٣٦٩ ومسلم رقم ٥٢١ وأوله: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطهنّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر..» الحديث، وانظر جامع الأصول ٨/٥٢٩.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ روي أنه لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله بالنصر؟ فنزل ﴿وَلَقَد صَدَقَكُمُ اللهُ وَعدَهُ﴾ ووعدُه إياهم بالنصر بشرط التقوى والصبر، بقوله تعالى: ﴿إن تصبروا وتتقوا﴾ وقال ﷺ للرماة: لا تبرحوا عن هذا المكان، فإنا لا نزال غالبين ما دمتم، وقد كان كذلك، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي تقتلونهم قتلاً كثيراً، من حسَّه إذا أبطل حسَّه، وقوله تعالى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بتيسيره وتوفيقه، وتقييد صدق وعده تعالى، بوقت قتلهم بإذنه، صريح في أن الموعود هو النصر العملي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعف رأيكم، وملتم إلى الغنيمة، فإن الحرص من ضعف العقل ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمره ﷺ يعني اختلاف الرماة بعد انهزام المشركين ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر نبيكم بترككم الثغر ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من انهزام المشركين والغنيمة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين انهالوا لجمع الغنائم، وتركوا الجبل، وخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم، حتى نالوا شرف الشهادة ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي كفَّكم عنهم حتى تحولت الحال ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب، ليظهر ثباتكم على الإيمان ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تفضلاً لما علم من ندمكم، والمراد بالعفو هنا عدم العقوبة ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التنوين للتفخيم أي ذو منٍّ وفضلٍ عظيم على عباده المؤمنين.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلق بصرفكم، والإصعاد الذهاب في الأرض، أصعد ذهب أينما توجَّه ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي لا يقف أحد لأحد، ولا ينتظره، ولا يلتفت إلى ما وراءه، وهو غاية انهزامهم، يقال: فلان لا يلوي على شيء أي لا يعطف ولا يلتفت إليه ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول إليَّ يا عبادَ الله، أنا رسول الله، وإيراده بعنوان

الرسالة، لتعظيم شأنه ﷺ توبيخ للمنهزمين ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي من ورائكم يقال جئت في آخر الناس وأخراهم فالمعنى كان ﷺ يدعوهم وهو واقف في آخرهم ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ أي فجازاكم الله بما صنعتم، والتعبير بالإثابة من باب التهكم على حد قولهم: «تحيةُ بَيْنِهِمْ ضربٌ وجيع» ﴿غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أي غمّاً على غمٍّ[1]، بالقتل، والجراح، وظفر المشركين، والإرجاف بقتل النبي ﷺ وفوت الغنيمة، فالتنكير للتكثير ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ أي فجازاكم على عصيانكم غماً متصلاً بغم، لتتمرنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة، وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة، عقوبة لكم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم، وبما قصدتم بها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾.

---

(١) هذا ما ذهب إليه شيخ المفسرين الإمام الطبري أن المعنى: غمّاً على غمّ، فتكون الباء بمعنى «على» ورجح هذا القول ابن القيم والحافظ ابن كثير، وقيل المعنى: جازاكم على صنيعكم غماً بسبب غمكم الرسول ﷺ ومخالفتكم أمره، فيكون ذلك عقوبةً لهم، وجزاءً وفاقاً على ما أدخلوه من الغمِّ على رسول الله ﷺ، ولعل هذا الرأي أظهر والله أعلم.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم ﴾ عطف على فأثابكم، والخطاب للمؤمنين ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ ﴾ الذي اعتراكم ﴿ أَمَنَةً ﴾ مصدر كالمنعة ﴿ نُّعَاسًا ﴾ وذلك أن المشركين لما انصرفوا يتوعدون المسلمين بالرجوع، فلم يأمنوا كرَّتهم، وكانوا تحت السلاح متأهبين للقتال، فأنزل الله عليهم أمنة، فأخذهم النعاسُ، وهو النوم الخفيف، وفائدة النوم أن السهر يوجب الضعف والكلال، والنوم يفيد عودة القوة والنشأة ﴿ يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ فيه إشعار بأنه لم يغش الكل. عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشّاه النعاسُ يوم أحد، سقط سيفي من يدي مراراً وآخذه[1] ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ هم المنافقون أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمُّهم إلاَّ همُّ أنفسهم وطَلَبُ خلاصها ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ أي والحال أنهم يظنون به تعالى غير ظن الحق الذي يجب أن يظن به سبحانه ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ هل لنا مما أمر الله ووعده من النصر والظفر نصيب قط ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي إن الشأن والغلبة الحقيقية لحزب الله وأوليائه، وغلبةُ الكفار على المسلمين ليس بنصر، لأن النصر ما كانت عاقبتُه سليمة، والمسلمون وإن انهزموا في الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم في الحقيقة، فإن حزب الله هم الغالبون، وأما قول الكفار: «لو كان هذا رسول الله لما سُلِّط عليه الكفارُ» فهذا ظن فاسد، لأن الله يبتلي عباده بما شاء، ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ أي يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿ مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ أي يقولون مظهرين النصرة، مبطئين الإنكار والتكذيب ﴿ يَقُولُونَ ﴾ في أنفسهم، أو إذا خلا بعضهم إلى بعض ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ كما وعد محمد ﴿ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ أي لما غُلبنا، ولَمَا قُتل من قُتل منا في هذه المعركة، عن الزبير قال: رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف، أرسل الله تعالى

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٠٨.

علينا النوم، فما منا رجلٌ إلاَّ ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول: «معتب بن قشير» ما أسمعه إلا كالحُلُم «لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلْنا ههنا» فحفظتُها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية[1] ﴿قُل﴾ يا رسول الله ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ أي لو لم تخرجوا إلى أُحُد، وقعدتم في المدينة ﴿لَبَرَزَ﴾ لخرج لسببٍ من الأسباب الداعية إلى البروز ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ في تلك المعركة ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ إلى مصارعهم ولم تنفعه الإقامة بالمدينة قطعاً، فإن قضاء الله لا يردُّ ولم ينجُ منه أحد ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يبتلي ما في صدوركم من الإخلاص، والنفاق، وهو علة لفعل مقدر، كأنه قيل: فَعَل ما فَعَل لمصالح جمة وليبتلي الخ ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وليكشفه ويميزه من مخفيات الأمور، ويُذكر الصدرُ مع الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ والقلب مقر الإيمان، والفؤاد مشرق المشاهدة، واللبُّ مقام التوحيد وعلى هذا تؤول ليبتلي إسلامكم، وليمحِّص إيمانكم، وربما يقال: عبَّر بذلك للتفنُّن بناءً على أنَّ المراد بالجمعين واحد ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي السرائر الخفية التي لا تكاد تفارق الصدور، والجملة حال أي فعل ما فعل والحال أنه تعالى غني عن الابتلاء، محيط بخفيات الأمور، وفيه وعد ووعيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾ أي هربوا منكم فهو خطاب لمن كان مع الرسول ﷺ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع الرسول ﷺ وجمعُ أبي سفيان للقتال بأحد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي إنما كان السبب في انهزامهم، أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه، وهي الخطيئة، وذلك بإلقاء الوسوسة في قلوبهم ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب التي هي المخالفة لأمر النبي ﷺ وترك المركز، والحرص على الغنيمة، والذنب يجر الذنب، كما

---

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٤٢٧.

أن الطاعة تجر الطاعة، لأن مخالفة أمره ﷺ سبَّب لهم الهزيمة ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم لتوبتهم واعتذارهم، أعاد سبحانه ذكر العفو تأكيداً لطمع المذنبين فيه، ومنعاً لهم عن اليأس وتحسيناً للظنون وكان المتولون أكثر القوم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني المنافقين، وهم القائلون: ﴿لو كَانَ لَنَا مِنَ الأمرِ شيءٌ ما قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ وإنما ذكر كفرهم صريحاً، لمباينة حالهم لحال المؤمنين، وتنفيراً عن مماثلتهم، وفيه دليل على أن الإيمان ليس عبارة عن مجرد الإقرار باللسان، بل هو تصديق وقول وعمل ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في المذهب، أي قالوا لأجلهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها للتجارة أو غيرها قال الزجاج: إذا ههنا لمجرد الوقت، أي حين ضربوا ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ جمع غاز وإنما لم يقل: أو غزَوْا، للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا﴾ بأن لم يسافروا أو لم يغزوا ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ بل كانوا يبقون أحياء بمضمونه كما أنه المنكر على قائليه ألا يرى قوله عزَّ وجل: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ اللام لام العاقبة أي قالوا ذلك واعتقدوه، ليكون ذلك حسرة وغمّاً، وحزناً في قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ لقولهم الباطل، أي هو سبحانه المؤثر في الحياة والممات وحده، من غير أن يكون للإقامة

والسفر، مدخل في ذلك، فإنه تعالى يحيي المسافر والمحارب، مع اقتحامهما لموارد الحتوف، ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهم لأسباب السلامة والراحة، ولا محيص عما قدَّر الله، وفيه المنع عن التخلف عن الجهاد ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوا المنافقين، وترغيب لهم في الطاعة، لأن ابتلاء الله كعلمه، يستعمل في القرآن للمجازاة على العمل، ولا حاجة لله عزَّ وجلّ للامتحان والاختبار.

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ﴾ أي في سبيله وأنتم متلبسون به فعلاً ﴿لَمَغۡفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ جواب القسَم والمعنى: إن السفر، والغزو في سبيل الله، ليس ممَّا يجلب الموت، وإن وقع ذلك في سبيل الله، فَمَا تنالون من المغفرة والرحمة بالموت، خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها، وهذا ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وفيه تعزية لهم وتسلية عما أصابهم في سبيل الله، وقدم القتل على الموت، لأنه أكثر ثواباً، وأعظم عند الله كما قال الشاعر:

فإنْ كانت الأبدان للمَوْت أنشِئت   فقتلُ امرىءٍ بالسيف ـ والله ـ أفضَلُ

﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ﴾على أي وجهٍ اتفق هلاككم، حسب تعلق الإرادة الإلٓهية ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ الرحيم الواسع الرحمة ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ لا إلى غيره فيجازي كلاًّ منكم بعمله، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والباء متعلق بـ«لنتَ» قُدِّمتْ للقصر، و«ما» مزيدة للتأكيد، والتنوين للتفخيم، أي

فبرحمة عظيمة كائنة من الله تعالى ﴿لِنتَ لَهُمْۖ﴾ أي كنتَ ليِّنَ الجانب لهم، وعاملتهم بالرفق والتلطف، بعدما كان منهم ما كان، أفاد الكلام فائدتين: إحداهما: شجاعتهُ ﷺ والثانية: رِفقه حيث ثبت حتى كرَّ عليه أصحابه، ثم ما زجرهم ولا عنّفهم على الفرار، بل آساهم في الغم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي خشن الجانب، شرس الأخلاق، جافياً في المعاشرة ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه، وفي الكلام حذفٌ، أي لو كنت كذلك ولم تلن لهم ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، ولم ينتظم أمر ما بعثت به من إرشادهم إلى صراط مستقيم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقك كما عفى الله عنهم ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقه سبحانه، إتماماً للشفقة، وإكمالاً للبِرِّ بهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾ في أمر الحرب إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يُشاور فيه استظهاراً لرأيهم، وتطييباً لنفوسهم، وتمهيداً لسُنَّة المشاورة للأمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَشَاوِرهُم فِي ٱلأَمرِ﴾ قال ﷺ: أما إنّ الله ورسوله لَغَنيّان عنها، ولكنّ الله جعلها رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيّاً»[1]. وفي الحديث: «ما تشاور قومٌ إلاَّ هُدُوا لأرشد أمرهم»[2] ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ عقيب المشاورة على شيء، واطمأنت به نفسك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي فاعتمد عليه وثِقْ به، وفوِّضْ أمرك إليه، فإنه الأعلم بما هو الأصلح، أصل التوكل إظهار العجز والاعتماد على الغير، وهو عندنا على الله سبحانه، ولا ينافي مراعاة الأسباب بل يكون بمراعاتها مع تفويض الأمر إليه تعالى، وفي الحديث: «اعقلها وتوكل»[3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، الواثقين به، فينصرهم ويرشدهم إلى ما هو خير لهم، لأنه سبحانه الملجأ الأعظم، الذي لا تنقضي الحاجة إلا عند بابه.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عدي في الكامل.

(٢) رواه الطبري في تفسيره.

(٣) الحديث رواه الترمذي رقم ٢٥١٩ وسببه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أُطلق ناقتي وأتوكَّل؟ فقال له ﷺ: «اعقِلها وتوكَّلْ» وانظر مع الأصول ١١/ ٧٩٢.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ﴾ فلا أحد يغلبكم، سيقت لإيجاب التوكل عليه تعالى، والترغيب لطاعته والتحذير عن معصيته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ويمنعكم معونته ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ استفهام إنكاري مفيد لانتفاء الناصر بطريق المبالغة ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾ أي من بعد خذلانه تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المراد بهم جنس المؤمنين، لأن الأمر كله لله، ولا رادَّ لقضائه، ولا دافع لحكمه، فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى لا على غيره.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ أي وما صحَّ لنبيٍّ ولا استقام أن يخون في الغنائم، فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال: غل، من المغنم: إذا أخذه خفية عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في قطيفة فُقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذها[1]. ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ أي يأتي بالذي غلَّه بعينه، يحمله على عنقه، أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكَرَ الغلول فعظَّمه، وعظَّم أمره، حتى قال: «لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رُغَاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك..»[2] الحديث ولعل السر في ذلك، أن يفضح به على رؤوس

(١) الحديث أخرجه أبو داود، والترمذي في التفسير ٥/ ٢١٤.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ١٢٩/٦ ومسلم في الإمارة رقم ١٨٣١ وأحمد في المسند ٤٢٦/٢.

الأشهاد، زيادة في عقوبته ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً، خيراً أو شراً، قليلاً أو كثيراً، وضع الكسب موضع الجزاء، تحقيقاً للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب، أو نقص ثواب.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ رضاء الله، أي سعى في تحصيله، بفعل الطاعات، وترك المنكرات ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ﴾ أي غضب عظيم كائن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، والمراد بمن ﴿اتَّبع رضوان الله﴾: المؤمنون، والمراد بمن ﴿باء بسخطٍ من الله﴾: المنافقون، وهم الذين باؤوا بسخطِ الله وغضبه، وقيل: الأول فيمن لم يغلَّ، والثاني فيمن غلَّ، والقول الأول أصحُّ وأظهر ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيره ذلك بيان لحال من باء بسخط ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ونظير هذه الآية: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾.

﴿هُمْ﴾ عائد على الموصولين باعتبار المعنى ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ طبقات متفاوتة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في علمه تعالى وحكمه، شُبِّهوا في تفاوت الأحوال بالدرجات، إيذاناً بأن بينهم تفاوتاً ذاتياً كالدرجات ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتهم، ويجازيهم على حسبها.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنعم وتفضل وأحسن على المؤمنين من أمة محمد ﷺ، وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة للناس لزيادة انتفاعهم بها ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي من جنسهم، لا مَلَكاً ولا جنيّاً، والامتنان بذلك إما لحصول الأنس فيسهل التلقِّي، وتزول

الوحشة والنفرة الطبيعية التي تكون بين الجنسين المختلفين ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن، ويطهّرهم من رجس الكفر والعصيان، ويعلمهم آيات الذكر الحكيم، والسنة النبوية المطهرة التي جاء بها سيد المرسلين وهي الحكمة ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر، لا شبهة في كونه ضلالاً.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ الهمزة للتقرير والتقريع، والواو عاطفة على ما سبق من قصة أُحد، ولمَّا ظرف بمعنى «حين»، والمرادُ من المصيبة ما أصابهم يوم أحد ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين، وجعل ذلك مثلين بجعل الأسر كالقتل، لأنهم قادرون على قتلهم، والمعنى: أحِين أصابكم من المشركين، نصف ما أصابهم منكم، جزعتم ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ وقلتم من أين أصابنا هذا، وقد تقدم الوعد بالنصر؟ وكونُ مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم، ممَّا يهوِّن الخطب، ويورث السلوة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ تبكيتٌ لهم ببيان أن ما نالهم إنما هو من جهتهم، بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة، فالوعدُ بالنصر كان

مشروطاً بالثبات والطاعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ومن جملته النصر عند الطاعة، والخذلان عند المخالفة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع المشركين، يريد يوم أحد ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فهو كائن بقضائه لمخالفتكم الأمر ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المراد بالعلم التمييز أي يميّز أهل الإيمان من أهل النفاق.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ إعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في سِلك المنافقين، والمعنى: وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز الثابتين على الإيمان، والذين أظهروا النفاق، وفيه تطييبٌ لأنفس المؤمنين، بإزالة مرارة التقريع، أي أنه سبحانه قادر على نصركم بعد فلا تيأسوا ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ عطف على نافقوا وهم «عبد الله بن أبيّ»، وأصحابه حيث انصرفوا يوم أُحُد ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ عنا العدوَّ، بتكثير سوادنا، أو ادفعوا عن أهليكم وبلدكم، إن لم تقاتلوا في سبيل الله ﴿قَالُواْ﴾ مستهزئين ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ أي لو نعلم ما يصح أن يُسمَّى قتالاً لاتبعناكم فيه، لكن ما أنتم عليه ليس بقتال، بل إلقاءٌ بالأنفس إلى التهلكة ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ لانخذالهم، وكلامُهم هذا واعتذارهم على وجه الدغل، أمارات ظهرت منهم، وهو مؤذنٌ بكفرهم، فإنَّ تقليل سواد المسلمين تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ المعنى: يتفوهون بقولٍ لا وجود له، فإنهم أظهروا فيه أمرين: الأول عدم العلم بالقتال، والآخر الاتباع على تقدير العلم، وقد كذبوا فيهما، حيث كانوا عالمين به، غير ناوين للاتباع، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصغير لشأنهم ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض من المكر والخديعة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ المراد بهم «عبد الله بن أبيّ»، وأصحابه ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ لأجلهم، يريد من قُتل يوم أحد من جنسهم وأقاربهم ﴿وَقَعَدُواْ﴾ أي قالوا قاعدين عن القتال ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ في القعود ﴿مَا قُتِلُواْۗ﴾ كما لم نُقتل، وفيه

إيذان بأنهم أمروهم بالانخذال، حين انخذلوا وأغووهم ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين على دفع القتل عمن كُتِبَ عليهم، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه فإنه أحرى بكم، والقعود غير مغن عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة، والحذر لا يدفع شيئاً من القدر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ كلام مسوق لبيان أن القتل الذي يحذرونه، ويحذّرون الناس منه، هو أجلُّ المطالب عند المؤمن، نزلت هذه الآيات في شهداء أحد[1]، الذين قتلوا في تلك المعركة، وفيهم

---

(١) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأُحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلّقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلّغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة لئلا يزهدوا في الجنة، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله: أنا أبلّغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً..﴾» الآية رواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٥٢٠.

«حمزة بن عبد المطلب» عم الرسول ﷺ ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ مستمرون على ذلك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذوو زلفى بالقرب والشرف ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الجنة، وهو تأكيد لكونهم أحياء.

﴿فَرِحِينَ﴾ أي مسرورين ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وهو شرف الشهادة، والفوز بالحياة الأبدية، والتمتع بنعيم الجنة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يسرون بالبشارة وأصل الاستبشار: طلبُ البشارة، إلا أن المعنى هنا هو الفرح التام ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ أي بإخوانهم المؤمنين، الذين لم يُقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة، وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين، إذا ماتوا أو قُتلوا كانوا أحياء، حياة لا يكدرها خوف ولا حزن، وفيها حث على الجهاد، وترغيب في الشهادة، وامتداح لمن يتمنى لإخوانه، مثل ما أنعم الله عليه.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرره للتأكيد، وليتعلق به قوله بنعمة ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وتنكيرهما للتعظيم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمراد منهم إما الشهداء وإما كافة أهل الإيمان، للإشعار بأن كل مؤمن يستحق الأجر، وليس مخصوصاً بالشهداء.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ صفة مادحة للمؤمنين أي أطاعوا الله ورسوله ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ بامتثال الأوامر ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ الجراحات ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا﴾ الجمع بين الوصفين، للمدح والتعليل ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ روى ابن إسحق وغيره، أن أبا سفيان وأصحابه، لمَّا انصرفوا من أُحد فبلغوا الروحاء، ندموا وهمُّوا بالرجوع، فبلغ الأمرُ رسول الله ﷺ، فأراد أن يرهبهم، فخرج بسبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد، وهو على بعد ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه قرح فتحاملوا، وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا فنزلت الآية، وهذا من المعجزات،

لأن المسلمين قد انهزموا، والعادة جارية بأنه إذا انهزم أحد الخصمين، يحصل في قلب الغالب قوةٌ وشدة، وفي قلب المغلوب خوفٌ وخشيةٌ، والحال أنه عز وجل قلب القضية ههنا، فهو معجز خارقٌ للعادة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ روي عن مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم أنهم قالوا نزلت هذه الآية في «غزوة بدر الصغرى»، وذلك أن أبا سفيان حين أراد أن ينصرف، قال يا محمد موعدُنا موسم بدر القابل، فقال ﷺ إن شاء الله، فلما كان القابل، خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل حرَّ الظهران، فألقى الله تعالى الرعب في قلبه، ولقي «نعيم ابن مسعود»، فقال له أبو سفيان: إني واعدٌ محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جدب لا يصلحنا، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج أنا فيزيدهم جرأة، فالْحَقْ المدينة فثبِّطْهم، ولك عندي عشرةٌ من الإبل، فأتى نعيم المدينة ووجد المسلمين يتجهزون للخروج، فقال لهم: تريدون أن تخرجوا إليهم، وقد جمعوا لكم؟ فواللهِ لا يفلتُ منكم أحد، فكره أصحاب الرسول ﷺ الخروج فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو وحدي»، فخرج ومعه سبعون، وهم يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل» ففي هذا نزلت الآية ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ أي فخافوهم ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ والمعنى أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت يقينهم بالله سبحانه وازداد إيمانهم، وأظهروا حمية الإسلام، وهو دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصاناً ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا الله، من أحسبه إذا كفاه ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ أي نعم الموكول إليه هو تعالى: وفي الحديث: «إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبي الله ونعم الوكيل»(١).

---

(١) أخرجه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره من حديث أنس بن مالك مرفوعاً ١/ ٤٤٠ وفي صحيح البخاري ما يؤيّده، فقد روى عن ابن عباس ٨/ ١٧٢ أنه قال: ﴿حسبُنا الله ونعم الوكيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناسُ ﴿إن النَّاسَ قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهم، فزادهُمْ إيماناً وقالوا حسبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ﴾.

Obeikandi.com

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي العافية والسلامة والثبات على الإيمان، وطاعة الله ورسوله ﴿وَفَضۡلٖ﴾ أي ربح في التجارة، فإنهم لما أتوا بدراً وكان في أيام الموسم، اتجروا وربحوا ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ من كيد عدوّ، وجراحة، وقتالٍ ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ بجرأتهم وخروجهم إلى وجه العدو طلباً لرضاء الله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضَّل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وحفظهم عن كل ما يسؤهم، مع إصابة النفع، وفيه تحسير لمن تخلَّف عنهم.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى المثبطين، والخطابُ للمؤمنين ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إبليس ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أي المنافقين، والقاعدين عن الخروج مع الرسول ﷺ، وقيل: المعنى «يخوّفكم بأوليائه» وعلى هذا المعنى أكثر المفسرين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ الضمير للناس ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري، فجاهدوا مع رسولي، والخطابُ للقاعدين ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله، على خوف الناس، ويستدعي الأمن من شر الشيطان.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ﴾ توجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ لتشريفه بتخصيصه بالتسلية، والإيذان بأصالته في تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤونه، والمراد بالموصول أما المنافقون قاله مجاهد، وإمَّا قوم من المرتدين قاله علي الجبائي وإمَّا العموم قاله الحسن ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعاً، حرصاً عليه، وشدة رغبتهم فيه، ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بفي دون إلى ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ تعليل للنهي، وتكميل للتسلية أي لن يضروا أولياء الله ضرراً ما ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لما هم فيه من الانهماك في الكفر، وتمادي طغيانهم، وموتهم على الكفر وصيغةُ الاستقبال ﴿يريد الله﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، ويرجع إلى دوام منشأ هذا المراد وهو الكفر، وفي الآية دليل على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى ﴿وَلَهُمْ﴾ مع هذا الحرمان ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان رغبة فيما أخذوه وإعراضاً عما تركوه، ولهذا وضع اشتروا موضع بدلوا ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ لمَّا جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة، وبتألمه عند كونها خاسرة، وصف عذابهم بالشدة والألم، والآية تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ خطاب للرسول ﷺ أو لكل من يحسب، والإملاء والإمهالُ: إطالةُ العمر، وقيل تخليتهم وشأنهم، من أملى لفرسه إذا أرخى له الطَّوْل ـ أي الحبل ـ ليرعى كيف شاء ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ تعليل لما قبلها، واللام في (لهم) لام الإرادة، وعند المعتزلة لام العاقبة، والآية حجة لأهل السنة، في عدم وجوب الأصلح ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي لهم عذاب مؤلم موجع، مع الإهانة

والتحقير لتكبُّرهم عن طاعة الله، ولمّا تضمن الإملاء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها، وذلك مما يستدعي التعزز، وصف عذابهم بالإهانة، ليكون جزاؤهم وفاقاً لعملهم، والآية نزلت في مشركي مكة، وهو المروي عن مقاتل، وقيل في بني قريظة قاله عطاء.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لوعد المؤمنين، ووعيد المنافقين، والمراد بالمؤمنين المخلصون، والمراد بما هم عليه: اختلاطُ بعضهم ببعض، واستواؤهم في إجراء الأحكام الدنيوية عليهم ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ أي ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط، بل يوحي إلى الرسول ﷺ بأحوالهم، ويبتليهم بالتكاليف التي لا يقدر عليها إلا الخُلّص، كبذل الأموال، والأنفس في سبيل الله، حتى يعزل المنافق من المؤمن، وتعلق التمييز بالخبيث إشعار برداءة ذلك الجنس، فإن الملقى من الشيئين هو الأدون واختلفوا بما يحصل التمييز، فقيل: بالمحن والمصائب، وقيل بإعلاء كلمة الله، وقيل بالوحي، ولهذا أردفه بقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ تمهيد لبيان المَيْزِ الموعود وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ إشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الإجمال، والإظهار في الموضعين لتربية المهابة، فالمعنى: ما كان الله ليترك المؤمنين، على الاختلاط بالمنافقين، بل يخرج المنافقين من بينهم، وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما في قلبهم، ولكنه تعالى يجتبي لرسالته من يشاء، فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات، واجتباء الله تعالى لرسله، تخصيصه إياهم بفيض إلهيّ، بلا سعي من العبد ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ سوق النظم الكريم، للإيمان بالرسول ﷺ، ولكنه ورد بالتعميم للإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ ﴾ بكل ما جاء به ﷺ حق الإيمان ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ النفاق أو المخالفة في الأمر والنهي ﴿ فَلَكُمْ ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بيان لحال البخل، ووخامة عاقبته أي لا يظنن أولئك البخلاء الذين يمنعون زكاة أموالهم، ولا يمدون يد العون للفقراء والمساكين ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ إيراد ما بخلوا به، بعنوان إيتاء الله إياهم من فضله، للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله تعالى، والبخلاء يمنعون حقوق الله كالزكاة، والفطرة، والأضحية، والنفقات، أو بحكم المروءة نحو الصدقة والهدية، وأشد البخل الإمساك عن نفسه، بأن لا يأكل، أو لا يلبس، أو لا يتداوىٰ، وهذا البخل يسمى شحا[1] ﴿ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ أي لا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيراً لهم ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ ﴾عظيم ﴿ لَّهُمْ ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم، ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ الكلام عند الأكثرين على ظاهره[2] أي سيكون هذا الذي بخلوا به طوقاً في أعناقهم يوم القيامة، وقال بعضهم: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي وله ما فيهما مما يتوارث به أهلهما من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه، ولا ينفقون في سبيله تعالى، أو أنه تعالى يرث منهم ما يمسكون بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من المنع والبخل، فيجازيكم على ذلك.

---

(١) هذا أبشع أنواع البخل، أن يبخل من الإنفاق على نفسه، كما قال الشاعر في شخصٍ يدعى عيسى:

يُقَتِّـرُ عِيسـىٰ عَلَـى نَفْسِـهِ ... وَلَيْـسَ بِبَـاقٍ وَلاَ خَـالِـدِ
فَلَـوْ يَسْتَطِيـعُ لِتَقْتِيـرِهِ ... تَنَفَّـسَ مِـنْ مِنْخَـرٍ وَاحِـدِ

(٢) أخرج البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته، مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ـ أي ثعباناً كبيراً ضخماً ـ يطوّقه فيأخذ بلهزمتيه ـ أي شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالُك، أنا كنزك، ثم تلا الآية ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون..﴾ الآية.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قاله اليهود لما سمعوا قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قالوه على سبيل الطعن والاستهزاء[1]، وظاهر الآية يدل على أن القائلين هذا

---

(١) روي في سبب نزول هذه الآية، أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه دخل بيت مجتمع اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على عظيم فيهم اسمه «فِنْحاص» كان من علمائهم وأحبارهم، فقال له أبو بكر: اتَّقِ الله وأَسْلِم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال له فِنْحاص: والله يا أبا بكر، ليس لنا من حاجةٍ إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عنَّا ما استقرض منا!! فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص، فَشَجَّهُ شجَّةً عنيفة، وقال له: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربتُ عنقك يا عدوَّ الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ يشكو أبا بكر، وجاء أبو بكر فأخبر =

كانوا جماعة، ومعنى الآية: أنه تعالى سمع مقالتهم ولم يخف عليه أمرهم، وأنه عز وجل أعدَّ لهم ما يكفيهم من العذاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ في صحائف الحفظة أو سنحفظه أي لا نهمله ولا ننساه لأنه كفر بالله، واستهزاء بالقرآن وقرنه تعالى بقوله ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ إيذاناً بأنهما أخوان في العظم، وتنبيهاً على أنَّ من اجترأ على قتل الأنبياء، لم يستبعد منه أمثال هذا القول، ونسبة هذا القتل إلى هؤلاء، باعتبار رضائهم بقتل أسلافهم ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ في اعتقادهم أيضاً، وننتقم منهم بسبب هذا القول ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم، وإنما أضيف إلى الله تعالى، لأنه بأمره، والحريق بمعنى المُحْرِق، والذَّوقُ: إدراك الطعوم، وعلى الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات والأمور العقلية، فيقال: ذقتُ الشقاءَ، ومرارةَ العيش.

﴿ذَٰلِكَ﴾ شهادة إلى العذاب المذكور ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء، والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من الكفر والمعاصي، عبَّر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي والله تعالى ليس بمعذب لعبيده، والتعبير عن ذلك بنفي الظلم، لكمال نزاهته تعالى عن ذلك، وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى، أو الصيغة هنا للنسبة، أي لا يُنسب إليه ظلم، فالمعنى ليس بذي ظلم، ولا يقع منه ظلمٌ لأحد أصلاً.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ المراد من الموصول جماعة من اليهود، ككعب بن الأشرف، ومالك بن حُيَيٍّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أي أمرنا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ أي بأن لا نصدِّق أحداً ممن ادعى الرسالة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا

= الرسول بما قاله ذلك الفاجر، فأنكر فنحاص تلك المقالة، فنزلت الآية تصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء..﴾ الآية. من تفسير ابن الجوزي ١/ ٥١٤.

﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ القربان أصله مصدر كالرجحان، وهو كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، والمراد به هنا تقديم شيءٍ تأكله النار، من كبشٍ، أو حبّ، أو طعام، قيل كانت بنو إسرائيل يذبحون الشاة فيضعونها وسط بيتٍ والسقفُ مكشوف، فيدعو نبيهم في البيت وبنو إسرائيل في الخارج، فتنزل نار فتأكله، وقيل إن هذا الشرط كذبٌ على التوراة، من كذب اليهود ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تبكيتاً لهم، وإظهاراً لكذبهم ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي بالقربان الذي تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ في قولكم إنَّا نؤمن بما جاء به، فإنَّ زكريا ويحيى وغيرهما قد جاؤوكم بما قلتم، فما لكم لم تؤمنوا بهم، حتى اجترأتم على قتلهم؟ بيّن الله عز وجل أنهم يطلبون هذه المعجزة على سبيل العناد، لا على سبيل الاسترشاد، ولذلكَ لم يسعف مطلوبهم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ شروع في تسلية النبي ﷺ، إثْر ما أوحي إليه ما يحزنه من مقالات الكفرة ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني فإن كذَّبك هؤلاء الكفار، فلا يهولنَّك أمرهم يا رسول الله، فقد فعلت الأمم السالفة بأنبيائهم كذلك ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات الواضحات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور كالرسول، يقال زبرت الكتاب: أي كتبته ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾أي الكتاب الهادي، وهو القرآن العظيم، المنيرُ لطريق الحق والهداية والسعادة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ هذا يدل على أن الأرواحَ لا تموت بموت الأبدان، لأن ذائق الشيء، لا بد أن يكون باقياً حال حصول الذوق، ولفظ «كل» يقتضي الشمول، بدليل قوله تعالى ﴿فَصَعِقَ منْ في السَّمَاواتِ ومَنْ في الأرْضِ إلاّ مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ وذلك يقتضي أن لا يموت الداخلون في هذا الاستثناء فالمعنى: لا يحزنك تكذيبهم، فمرجع الخلق إلى الفناء ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم، خيراً كان أو شراً، تاماً وافياً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي وقت قيامكم من القبور وفي لفظ التوفية، إشارة إلى

أن بعض أجورهم، تصل إليهم قبل ذلك اليوم، وفي الحديث الشريف «القبر إما روضةٌ من رياض الجنة، أو حُفرةٌ من حُفر النيران»[1] وقال ﷺ: «إذا مات الرجلُ عُرض عليه مقعدهُ بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدُك حتى يبعثك اللهُ يوم القيامة»[2] وهذه الأحاديث الشريفة تثبت الحياة في القبر ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ بَعُدَ عنها، والزحزحةُ في الأصل: تكريرُ الزحّ، وهو الجذبُ بعجلة ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوزُ: الظفرُ بالبُغية فاز، يفوز: نجا وظفر بمراده ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي لذاتها وزخارفها وشهواتها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ المتاعُ: كلُّ ما ينتفع به، كالطعام، واللباسِ، وأثاث البيت، مما يُباع ويُشترى، وقد شبهها سبحانه بالمتاع إشارة إلى رداءتها، والغرورُ: الخداع، غرته الدنيا أي خدعته بزينتها وهذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي متاع بلاغٍ إلى انتهاء الأجل.

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ أي والله لتختبرن، جوابُ قسم محذوف، وفيه تسلية للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، عما سيلقونه من جهة الكفار من المكاره، ليوطّنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه، ويقابلوه بالصبر والثبات ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بتكليف الإنفاق، وما يصيبه من الآفات ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل، والأسر، والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخائف ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى، عبّر عنهم بذلك، للإشعار بمدار الشقاق، وهو الكيد والحسد ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ من هجاء الرسول ﷺ، والطعن في الدين، وإغراء الكفرة على المسلمين، وصدٍّ من أراد الإيمان وهجر المؤمنين، والافتراء على الله وعلى الرسول ونحو ذلك ﴿وَإِن

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦٢.
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ٣/ ١٩٣ ومسلم رقم ٢٨٦٦.

﴿تَصۡبِرُواْ﴾ على تلك الشدائد والمصاعب عند ورودها ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي تتمسكوا بتقوى الله وطاعته، بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب، ولقاء المكروه ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الصبر والتقوى ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي ممّا يجب العزم عليه من الأمور، التي ينبغي أن يعزمها كل أحد، لما فيها من كمال المزية والشرف.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ بيان لبعض إذايتهم، وهو كتمانهم ما فيه من الشواهد على نبوته ﷺ، أي اذكروا وقت أخذه تعالى ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى، ذكروا بعنوان «أوتوا الكتاب» مبالغةً في تقبيح حالهم، ورمزاً إلى أن أخذ الميثاق كان في كتابهم الذي أوتوه ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ الضمير للكتاب، وهو جواب القسم، ينبىء عنه أخذ الميثاق، كأنه قيل لهم: بالله لتبيِّنُنَّه ﴿لِلنَّاسِ﴾ وتظهرون ما فيه من الأحكام والأخبار، والتي من جملتها أمر نبوته ﷺ ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ نهي عن الكتمان بعد الأمر بالبيان، إما للمبالغة في إيجاب المأمور به، وإما لبيان المأمور به أو بالكتمان المنهي عنه، بإلقاء التأويلات الزائغة، والشبهات الباطلة ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثّق ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً، وفيه من الدلالة على أنه يجب على العلماء، أن يبينوا الحق للناس، وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد، من تسهيلٍ على الظلمة، أو تطييب نفوسهم، أو لجر منفعة، أو دفع أذية

﴿ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ﴾ بالكتاب الذي أُمروا ببيانه، ونُهوا عن كتمانه أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ شيئاً تافهاً حقيراً من حُطام الدنيا وأعراضها ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ أي ما يختارون لأنفسهم.

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ الخطاب له ﷺ أو لكل من يصلح له ﴿ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ ﴾ بما فعلوا، روي عن أبي سعيد الخدري قال: إن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، كانوا إذا خرج رسول الله إلى الغزو، تخلَّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم، فإذا قدم رسول الله اعتذروا إليه، وحلفوا له، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية(1)، والفَرَحُ: لذَّةٌ تحصل في القلب بنيل المراد يستعمل في معان أحدها البطر كما في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يحبّ الفَرِحِينَ﴾ الثاني الرضاء وعليه قوله سبحانه: ﴿كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ والثالث السرور وعليه قوله تعالى: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ أي يحبون أن يحمدهم الناس، لأنهم كانوا يفرحون بما فعلوا، من إظهار الإيمان، وقلوبهم قاسية بالكفر والعداوة ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم ﴾ تأكيد له، والفاءُ زائدة قال الزجاج: إذا طالت القصة، تعيد حسب ما أشبهها توكيداً، فتقول: لا تظنَنَّ زيداً إذا جاءك وكلَّمك بكذا وكذا، فلا تظننه صادقاً، فيفيد لا تظنن توكيداً وتوضيحاً ﴿ بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي ملتبسين بنجاة منه، لأن لباس الزور لا يبقى، ويكشف حال صاحبه، ويفتضح، والمفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز والنجاة، والآية للتنبيه على بطلان آرائهم، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون

---

(1) أخرج البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم ـ وهو أمير المدينة ـ قال لبوابه: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معذَّباً لنعذبنَّ أجمعون!! فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما دعا النبي ﷺ اليهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب..﴾ الآية، وانظر فتح الباري ٨/ ٢٣٣.

بما صنعوا من عذاب الآخرة، كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية، ولذلك كان فرحهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم لا غاية له في المدة والشدة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له خاصة دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على عقوبتهم كيفما يشاء.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ
فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ
﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا
فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا
وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي في إنشائهما في ذاتهما وصفاتهما، التي تحار فيه العقول ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في تعاقبهما وتفاوتهما ﴿لَآيَاتٍ﴾ التنكير للتفخيم، أي لآيات كثيرة عظيمة، دالة على وحدته، وكمال علمه، وعلى عجائب شؤونه تعالى، وفيه رمز إلى أن الآيات الظاهرة ـ وإن كانت كثيرة في نفسها ـ إلا أنها قليلة في جنب ما خفي عنها في خزائن الغيب ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لذوي العقول السليمة، المتفكرين في بدائع صنائع الخالق جل وعلا، الممتثلين لقوله سبحانه: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ فإن كل ما ظهر في مظاهر الإبداع، دليل قوي على الصانع المجيد ﴿الذي أتقن كلَّ شيءٍ خَلقَهُ﴾.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ المراد بهم الذين لا يغفلون عنه تعالى، في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكر الله، حين أيقنوا بأن كل ما سواه، فائض

منه وعائد إليه[1] ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ فالمراد به ذكره تعالى مطلقاً، في جميع الأحوال، وليس المراد الدوام الحقيقي لاستحالته، بل في غالب أحوالهم، لا يغفلون عنه تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً وهو أفضل العبادات، لما رُوي عن ابن عباس «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» وأصل الفكر إعمال الخاطر في الشيء، والتفكر إنما يكون بالقلب والروح وهو لا يمكن إلا فيما له صورة في القلب، ولهذا فإنه سبحانه خصَّ التفكر في الخلق، ونهى عن التفكر في الخالق، لعدم الوصول إلى كنه ذاته، وصفاته، وقد رُوي عن عبد الله بن سلام قال: «خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون، فقال: تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله[2]»، قدَّم الذكر على التفكر، للتنبيه على أن العقل لا يفي بالهداية، ما لم يتنور بنور ذكر الله، أي يتفكرون في إبداعهما، بما فيهما من عجائب المصنوعات، ولطائف الحِكَم، ويستدلون بذلك على الصانع ووحدته وقدرته وعلمه، لأن عظم آثاره تدل على عظم مبدعها، كما قيل:

وفي كلِّ شيءٍ له آيَةٌ ... تدُل على أنَّهُ واحِدُ

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ أي يقولون ذلك، وهذا إشارة إلى السماوات والأرض، متضمنة لضرب من التعظيم، أي ما خلقت هذا المخلوق البديع عبثاً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، بل منتظماً لحكم جليلة، ومصالح عظيمة، من جملتها أن يكون مداراً لمعايش المخلوقات،

---

(١) الذكر على أقسام: ذكرٌ باللسان، وذكرٌ بالأركان، وذكر بالجَنَان يعني القلب، فالذكر باللسان إنما يكون بالتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، وحمد الله، والثناء عليه بشتى صيغ الذكر، والذكرُ بالأركان أن تصير الجوارح والأعضاء مشتغلةً بالعبادات، منتهيةً عن المنهيات، والذكر بالقلب أن يتفكر المؤمن في دلائل القدرة والوحدانية، ويتفكر في مخلوقات الله، ليستدل بها على عظمة الخالق جلَّ وعلا كما قال سبحانه: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً..﴾ الآية.

(٢) أخرجه أبو نُعيم في الحلية، وانظر الفتح الكبير ٢/ ٣٥.

ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك، عما لا يليق بك من الأمور، التي من جملتها خلق ما لا حكمة فيه، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي احمنا من نار جهنم، كأنهم قالوا: فكَّرنا في خلقك، وعرفنا سرك، وأطعنا أمرك، ونزَّهناك عما لا ينبغي، فقنا عذاب النار، الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ مبالغة في استدعاء الوقاية، وبيان لسببه، وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة في التضرع، وتأكيدها لإظهار كمال اليقين بمضمونها، يقال: أخزاه الله، أي أبعده، وأهانه، وقيل: فضحه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ المراد بالظالمين الكفار، وضع المظهر موضع المضمر، للدلالة على أن ظلمهم، تسبَّب لإدخالهم النار، فالمعنى: ما للظالمين نصيرٌ من الأنصار.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ حكاية دعائهم المبني على الدليل السمعي، بعد حكاية دعائهم المبني على التفكر في الأدلة العقلية، وفي تنكير المنادي تعظيم لشأنه، والمراد به الرسول ﷺ، وقيل: القرآن، والأول أظهر وأشهر، وإيثاره على الداعي، للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة، وتبليغها إلى الداني والقاصي، لأن النداء برفع الصوت، ومعناه نداء منادٍ، كما يقول: سمعتُ زيداً، أي سمعتُ قوله ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي لأجل الإيمان، وهذا أصل بديع، يُصار إليه للمبالغة، في تحقق السماع، وللإيذان بوقوعه بلا واسطة ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ بأن آمنوا ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ بمالككم ومبلّغكم إلى الكمال ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ أي فامتثلنا أمره، وأجبنا نداءه ﴿رَبَّنَا﴾ تكرير للتضرع، وإظهار لكمال الخضوع[1] ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي صغائرنا، وإنما ذكروهما للتأكيد، أي

---

(١) في هذه الآيات، تعليمٌ من الله لعباده، كيف يدعونه ويبتهلون إليه، وتكرير «ربنا» من باب التضرع، وإظهار كمال الخشوع، وهو مما يوجب حسن الإجابة.

غطِّ ذنوبنا فلا تظهرها بالعقاب عليها ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي اقبض أرواحنا في جملة الأبرار وبصحبتهم وزمرتهم، وفيه إشعار بأنهم كانوا يحبُّون لقاء الله تعالى، والأبرار جمع البار، وهو الصالح الكثير البر الصادق في قوله وفعله.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي على ألسنة رسلك، جَمَعَ الرسل مع أن المنادي الرسول ﷺ وحده، لما أن دعوته ﷺ منطويةٌ على دعوة الكل، وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله، والله لا يخلفُ الميعاد، لأن مرادهم أن يقولوا اجعلنا ممن له الوعد، وقيل: هو من باب اللجوء إلى الله تعالى، ويقصدون بذلك التذلل لربهم ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ بأن تعصمنا عمَّا يوقعنا في الخزي في ذلك اليوم، قصدوا بذلك وعده تعالى بقوله: ﴿يومَ لا يُخْزي الله النبيَّ والَّذين مَعَهُ﴾ والخزيُ: الذل والهوان، والإخزاء هو الإذلال بما فيه فضيحة أو عار ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي، والميعاد: الوعدُ، وهذه الدعوات ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد، بل من أن لا يكونوا من جملة الموعودين، بتغيير الحال، وسوء الخاتمة.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ دعاءهم، وصيغةُ الماضي للإيذان بتحقق الإجابة ﴿أَنِّي﴾ أي بأني، الباء للسببية، كأنه قيل: فاستجاب لهم ربهم لسبب أني ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ أي سُنَّتي مستمرةٌ على ذلك، والمراد الإشعار بأن مدار الاستجابة، أعمالهم التي قدَّموها، لا مجرد الدعاء، وهذا يدل على أن الفضل في باب الدين، بالأعمال الحسنة لا بصفات العاملين ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ بيان للعامل، وتأكيد لعمومه ﴿بَعۡضُكُم﴾ أي

الذكور والإناث كائن ﴿مِّنۢ بَعۡضٍۖ﴾ لأنهما من أصل واحد، ولاتفاقهما في الدين والعمل، روي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: قلتُ يا رسول الله ما أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى الآية[1] ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ تفصيل لأعمال العمال، وما أعد لهم من الثواب على سبيل المدح، والتعظيم، والمعنى: فالذين هاجروا من الأوطان من أجل الدين ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ التي ولدوا فيها ونشأوا ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بسبب إيمانهم بالله، ومن أجله، وهو متناولٌ لكل أذية نالتهم، بالشتم والضرب والتحقير، ونهب الأموال، فالهجرة كائنة في آخر الزمان، كما كانت في أول الإسلام ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ الكفار في سبيل الله ﴿وَقُتِلُواْ﴾ استُشهدوا في الجهاد ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ جواب قسم محذوف أي واللهِ لأكفرنَّ ﴿عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ لأمحونّها وأسترها بالمغفرة، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذا ما عبّر عنه الداعون بقولهم: ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ وتفسير له ﴿ثَوَابٗا﴾ مصدر مؤكد أي أثيبهم بذلك إثابة ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ تفضلاً منه تعالى ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ الجزاء يختص به جلَّ وعلا، ولا يقدر عليه غيره.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٣٢.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ بالتجارة والكسب، بيان لقبح ما أوتي الكفرة من حظوظ الدنيا، والخطاب لكل أحدٍ ممن يصلح للخطاب، أو للرسول ﷺ والمراد به غيره، والمعنى: لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة، والحظّ، ولا تغترَّ بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم، ومتاجرهم، ومزارعهم.

روي أن بعض المسلمين كانوا يرون المشركين في رخاء، فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد، والجوع، والبلاء، فنزلت الآية.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي ذلك التقلب، متاعٌ يتمتعون به يسيراً في الدنيا ويفنى، أو قليل في جنب ما أعد الله للمؤمنين ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ﴾ أي مصيرهم الذي يأوون إليه ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي ما مهّدوا لأنفسهم، عن عمر بن الخطاب قال: «جئتُ رسول الله ﷺ فإذا هو على حصير، ما بينه وبينه شيء، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيتُ، فقال: ما يبكيكَ يا عمر؟ قلت يا رسول الله: إن كسرى وقيصر على فُرُش الديباج والاستبرق، وأنت رسول الله تنام على الحصير؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ أولئك أقوامٌ عُجِّلتْ لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا»[1].. الحديث.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين ﴿ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ وإيراد التقوى للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الاتقاء من الشرك والمعاصي ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ النُّزُلُ: ما يُعدُّ للنَّازل والضيف، من طعام، أو شراب ونحوها ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي الثواب ﴿خَيْرٌ﴾ لكثرته ودوامه كائن ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من متاع الدنيا، لقلته وسرعة زواله، والتعبير عنهم بالأبرار

(١) هذا طرف من حديث رواه الشيخان، وانظر كامل الحديث في فتح الباري ٨/٦٥٨.

للإشعار بأن الصفات المذكورة من أعمال البر، كما أنها من التقوى، التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين، وقدّم الإيمان بالقرآن، لأنه آخر الكتب الإلٰهية، ولا يصح إيمان أحد حتى يؤمن بجميع كتب الله ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار معنى من ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا يغيّرون كتبهم، ولا يكتمون صفته ﷺ لأجل الرياسة، والمتاع القليل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم بما عُدَّ من صفاتهم الحميدة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي المختص بهم الموعود بقوله تعالى ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والمراد به التشريف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه لجميع الأشياء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ختمت السورة بما يوجب المحافظة عليها فقيل ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ على مشاق الطاعة، وتكاليف الدين، وما يصيبكم من الشدائد في الدنيا ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أي غالبوا أعداء الله، بالصبر في مواطن الحرب، أو على مخالفة الهوى والمعاصي، وتخصيصه بعد الأمر بالصبر لكونها أشد منه وأشق ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أي أقيموا الثغور رابطين، مترصدين ومستعدّين للغزو، وفي الحديث الشريف: «رباطُ يوم في سبيل الله، خير من الدنيا وما عليها»[1] الرباط مصدر رابط إذا أقام في ثغر من ثغور الإسلام حارساً له من العدو، وعن سلمان «رباط يومٍ وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، وإذا مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله» يعني يكتب له أجر رباطه إلى يوم القيامة، وفيه فضيلة مختصة للمرابط لما

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/ ١١ في الجهاد، ومسلم رقم ١٨٨٠ وتتمته «وموضعُ سوطِ أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والرَّوحةُ يروحها العبد في سبيل الله ـ أي رجوعه من الغزو ـ أو الغدوةُ، خير من الدنيا وما عليها» وانظر جامع الأصول ٩/ ٤٧١.

جاء في صحيح مسلم «كلُّ ميت يُختم عليه عمله إلا المرابط[1] » ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره على الإطلاق ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كي تنتظموا في زمرة المفلحين، الفائزين بكل مطلوب، الناجين من كل الكروب.

«تمَّ تفسير سورة آل عمران والحمد لله رب العالمين»

* * *

(١) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي رقم ١٦٢١ وأمَّا رواية مسلم ٣/ ١٥٢٠ فهي بلفظ «رباطُ يوم وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه، وإنْ مات جرى عليه عملُه الذي كان يعملُه، وأُجّري عليه رزقُهُ، وأَمِنَ الفتَّان».